الكتاب الثاني

مراكز الحياة العقلية في ذلك العصر

الباب الأول
مصر والشام

توالى على مصر والشام في هذا العهد الدولة الطولونية (٢٤٥هـ- ٢٩٢هـ). ثم الإخشيدية (٣٢٣هـ- ٣٥٨هـ)، والدولة الحمدانية في حلب والموصل (٣١٧هـ- ٣٩٤هـ)، والفاطمية من (سنة ٣٦٢هـ- سنة ٥٦٧هـ).

وكانت الحركة العلمية فيها تنمو تبعًا لسنَّة النشوء والارتقاء.

وأظهر الحركات العلمية فيهما الحركة الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات؛ إذ كانت هي الحركة العلمية الغالبة في المملكة الإسلامية، وكان رجالها أنشط العلماء، وأميلهم إلى الرحلة للإفادة والأستفادة، للوازع الديني القوي عندهم. فكان يرد على مصر والشام كثيرون من العلماء الدينيين من العراق وفارس والحجاز والمغرب، فينشرون علمهم ويأخذون مما ليس عندهم؛ فكان مسجد عمرو بن العاص في الفسطاط، ومسجد أحمد بن طولون، والأزهر فيما بعد مصدرًا لثقافة دينية واسعة. كما كان المصريون والشاميون يرحلون إلى الأقطار الأخرى لأخذ العلم من علمائها.

فكان من أشهر المحدِّثين والفقهاء في العهد الطولوني وقبله: الربيع بن سليمان المُرَاديّ بالولاء؛ وقد امتاز بسعة الحفظ وجمع الرواية، وإن لم يمتز بالذكاء، له الفضل الأكبر في حفظ مذهب الشافعي وروايته؛ فقد كان تلميذه، وكان مقرَّبًا إليه؛ وقد نفعته قلّة ذكائه في اعتماده على الضبط والتثبّت أكثر مما يعتمد على الذكاء والاستنتاج؛ وأدرك الشافعي هذه الميزة فيه فقرَّبه إليه، وعني بتحميله علمه، وأفاد مصر كثيرًا فإنه عُمِّر طويلًا، إذ عاش نحو ست وتسعين سنة (١٧٤هـ- ٢٧٠هـ)،

فيكون قد عمر في العهد الطولوني نحو ستة عشر عامًا. وكان يدرِّس في جامع الفسطاط؛ ثم استدعاه أحمد بن طولون إلى التدريس في مسجده لما بناه، وقد نشر في مصر أحاديث الشافعي وفقهه، كما روى أحاديث كثيرة رواها عن غير الشافعي كعبد الله بن وهب، ويحيى بن حسان، وأسد بن موسى، وكان قبلة أنظار المحدِّثين من الأقطار المختلفة، فيرحلون إلى مصر يأخذون عنه وعن أمثاله، فروى عنه من جامعي الكتب الصحيحة أبو داود، والنَّسائي، وابن ماجَه، وغيرهم؛ وعلى الجملة فكان الربيع بن سليمان مصدر حركة علمية دينية كبيرة.

وكما كان الربيع بن سليمان إمام الشافعية في مصر، كان أبو جعفر الطحاوي إمام الحنفية فيها، وكان من طحا وهي بلدة قديمة كانت في الوجه القبلي من أعمال «المنيا». كان الطحاوي من عرب الأزد الذين نزلوا بها، وتفقَّه على خاله المُزَني صاحب الشافعي، ثم تحول إلى مذهب أبي حنيفة، وتعلَّم على من كان بمصر من العلماء، ومن دخلها من الغرباء؛ وكان مجتهدًا في المذهب يضارع أبا يوسف ومحمدًا، استفاد من جمعه بين فقه الشافعية والحنفية، فكان يجتهد، ويخالف أبا حنيفة عند قيام الدليل، وينقد الحديث نقد معنى وإن صح السند في نظر المحدِّثين؛ فكانت شخصيته غير شخصية الربيع بين سليمان، إذ كان هذا عمدة في الرواية، وذاك عمدة في الدراية. وكان من أسبق المؤلفين المصريين في فنون مختلفة: ألَّف «معاني القرآن»، و«مشكل الآثار»، وشرح بعض كتب محمد بن الحسن، وألَّف في التاريخ والنوادر الفقهية. عاش من سنة ٢٢٩هـ -سنة ٣٢١هـ، فعاصر الدولة الطولونية كلها، وترك في مصر حركة حنفية تساير حركة الربيع الشافعية، وتمتاز بإعمال العقل في التشريع بجانب النقل.

كما اشتهر من المالكية روح بن الفرج أبو الزّنباع الزبيري المتوفى سنة ٢٨٢هـ،

وأحمد بن الحارث بن مسكين المتوفى سنة ٣١١هـ. وأمثال هؤلاء كثيرون لا نطيل بذكرهم.

وهذه الدراسة كانت تعتمد على تفهُّم معاني القرآن ورواية الحديث، وأقوال الأئمة، واستنباط الأحكام، كلّ على أصول مذهبه؛ وكانت على نمط الدراسة في العراق موضوعًا ومنهجًا، إذ كانت رحلة العلماء في حركة مستمرة كأن المملكة الإسلامية كلها على اتساع رقعتها بقعة واحدة.

وكان النابغون في مصر من علماء الدين إما من أصل عربي يرجع نسبه على القبائل العربية الفاتحة أو الوافدة، أو من أصل مصري أصله قبطي وأسلم هو أو أسلم أجداده، كما نرى في عثمان بن سعيد الملقب بوَرْش أحد القراء المشهورين، فأصله قبطي، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية؛ وقد مات بمصر سنة ١٩٧هـ، وخلَّف من حمل عَلَم القراءة بعده، واستمرت حركته إلى هذا العصر الذي نؤرِّخه.

وربما كان أكبر من يمثِّل الثقافة الدينية في هذا العصر أيضًا أبو بكر بن الحداد، فقد وصفوه بأنه عالم بالقرآن والحديث، والأسماء والكنى، والنحو واللغة، وسِيَر الجاهلية، والشعر والنسب، واختلاف الفقهاء، وكان أعلم أهل وقته، وولي القضاء للإخشيد، وعاش تسعًا وسبعين سنة، ومات سنة ٣٤٤هـ، وكان يلقَّب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها، وكان يدرِّس في جامع عمرو، وأخذ عنه أعلام الجيل الذي بعده.

ويصف ابن زولاق سيبويه المصري، فيقول: «كانت فيه صفات تشبه المتصدِّرين: يحفظ القرآن، ويعلم كثيرًا من معانيه وقراءاته، وغريبه وإعرابه

وأحكامه، عالمًا بالحديث وبغريبه ومعانيه وبالرُّواة، ويعرف من النحو، والغريب ما لقَّب بسببه سيبويه، ويعرف صدرًا من أيام الناس، والنوادر والأشعار، وتفقَّه على قول الشافعي».

فيكاد يكون هذا برنامجًا عامًا لهذا النوع من الثقافة الدينية.

ولم تكن هناك مدارس في العهد الطولوني والإخشيدي، إنما تلقى الدروس في المساجد كمسجد عمرو، وابن طولون، وفي بيوت الأمراء والوزراء والعلماء، وكانت هناك سوق تسمى «سوق الورَّاقين» تباع فيها الكتب، وأحيانًا تدور في دكاكينها المناظرات[1].

وكان بجانب الحركة الدينية حركة تعنى بتدوين أحداث مصر وتاريخها، وتسلك في منهجها مسلك المحدِّثين، غاية الفرق أن المحدِّثين يجمعون ما روي عن رسول الله والصحابة والتابعين فيما يتعلق بالأحكام الدينية ونحوها، وهؤلاء يروون ما قيل في أحداث التاريخ؛ إنما الأسلوب واحد في الرواية رجلًا عن رجل «حدثنا فلان عن فلان قال»؛ وقد لا يدقِّقون في هذا الباب دقَّتهم في بال الأحاديث الدينية، ولذلك نرى من تخصّص في التاريخ أيضًا ممن كانت دراستهم أساسها الحديث والفقه، ولنسق مثلًا لذلك: «حدثنا أبو الأسود النضر بن عبد الجبار؛ قال: حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب قال: كان عمر بن الخطاب قد أشفق على عمرو بن العاص عند فتحه لمصر فأرسل الزبيرَ في أثره في اثني عشر ألفًا، فشهد معه الفتح[2]» والمؤرّخون من هذا النوع أوثق فيما نقلوه عن الفتح الإسلامي وبَعده منهم فيما نقلوه عن تاريخ قبل الفتح، فهذا مملوء بالخرافات لجهلهم بالمصادر الصحيحة في تاريخ

(١) انظر: أخبار سيبويه المصري لابن زولاق ص١٨.

(٢) من كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم.

اليونان والرومان ومَن قبلهم إلى قدماء المصريين.

وقد اشتهر من هؤلاء ثلاثة مؤرِّخين في هذا العصر:

١ - ابن يونس: وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى من بيتٍ عرف بالحديث والفقه، عربي الأصل من قبيلة الصَّدِف؛ كان جده من أصحاب الشافعي، وقد قال فيه الشافعي: «ما رأيت بمصر أعقل من يونس». وانتهت إليه رياسة العلم بمصر، فجاء حفيده هذا يعني بتاريخ مصر بعد أن تثقَّف بالفقه والحديث، وقرأ ما كتبه مؤرِّخو مصر قبله كابن عبد الحكم وغيره؛ وقد عاش في العهد الطولوني والإخشيدي، عاش من (٢٨١هـ- ٣٤٧هـ)، ووُجدت عنده العصبيَّة لمصر يؤرِّخها ويعني بحوادثها ورجالها؛ وقد جمع لها تاريخين: أحدهما وهو الأكبر يختصُّ بالمصريين منشأ، والآخر صغير فيمن ورد على مصر من الغرباء؛ وقد عني بجمع أحوال الناس، مطلعًا على ما ألّف فيها لعصره، واشتهر بين المصريين بذلك، فقد قال أحد شعرائهم في رثائه:

ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه ... حتى رأيناك في التاريخ مكتوبا

نشرت عن مصر من سكانها عَلَمًا ... مبجلًا بجمال القوم منصوبا

كشفت عن فخرهم للناس ما سجعت ... وُرْق الحمام على الأغصان تطريبا

أعربت عن عَرَب، نقّبت عن نخب ... سارت مناقبهم في الناس تنقيبا

أنشرت ميتهم حيًّا بنسبته ... حتى كأن لم يمت إذ كان منسوبا

ومهما كان هذا الشعر ضعيفًا ففيه دلالة على تقدير هذا المؤرخ واتجاهه في نشر مفاخر مصر ورجالها.

٢- الكِنْدي: محمد بن يوسف من كندة، كان من أعلم الناس بتاريخ مصر،

وأهلها وأعمالها وثغورها، وهو مصري نشأ بمصر ومات بها (٢٨٣هـ- ٣٥٠هـ).

وقد ثقف ثقافة محدِّثين، وكان أشهر أساتذته ابن قُدَيد، والنَّسائي أحد مؤلفي الصحاح؛ وقد زار النسائي مصر إذ كان عُمْر الكندي سبعة عشر عامًا، وأقام بها زمنًا فأخذ عنه الكندي؛ ثم عني بتاريخ مصر، وألف في ذلك كتبًا كثيرة، فألَّف في ولاة مصر وقضاتها -وقد وصل إلينا هذا الكتاب- وألَّف في خطط مصر، وكتابًا في موالي مصر؛ وقد كانت هذه الكتب مما اعتمد عليها المقريزي في خِطَطه. وكتابه الذي وصل إلينا عن قضاة مصر وولاتها يلقي لنا ضوءًا كبيرًا على حالة مصر السياسية والاجتماعية والأدبية؛ إذ يعرض للأحداث التي حدثت في عهد كل والٍ، وكيف تصرف فيها، وما قيل فيها من الشعر.

٣- ابن زُولاق: وهو الحسن بن إبراهيم الليثي بالولاء. عني كذلك بتاريخ مصر، فأكمل أخبار قضاة مصر للكندي إلى سنة ٣٨٦هـ، أي قبل وفاته بسنة، فقد مات سنة ٣٨٧؛ وعُني بخطط مصر فألف فيها، وكانت خططه أساسًا لمن أتى بعده من مؤلفي الخطط كالقضاعي، وابن بركات، ثم المقريزي.

كما ألف لنا كتابًا في أخبار سيبويه المصري أحد عقلاء المجانين، فروى لنا طرفًا من جيد أقواله، وغريب أحداثه، وأفادنا به فوائد كثيرة عن الحالة الاجتماعية في العهد الإخشيدي.

وجاء مصر في العصر الإخشيدي المؤرِّخ المشهور: «المسعودي» بعد أن رحل إلى فارس والهند، وسيلان والصين، وطاف المحيط الهندي، ورحل رحلة أخرى إلى ما وراء أذربيجان وجرجان، ثم إلى الشام، ثم إلى مصر، ونزل الفسطاط وأقام بمصر نحو سنتين إلى أن توفي سنة ٣٤٦هـ، وكان مؤرِّخًا ممتازًا على من سبقه بكثرة تجاربه

من رحلاته ومشاهداته، ودقة نظره، وسعة اطلاعه، والتفاته إلى آفاق واسعة في التاريخ، كالحياة الاجتماعية والاقتصادية، والمذاهب الدينية، وأصول الحضارة، وغير ذلك؛ وقد بَعُد في التاريخ عن أسلوب المحدِّثين، فانتقل به خطوة أخرى، ولا شك أن وجوده بمصر ونشر كتبه فيها كان له أثر كبير في الثقافة التاريخية.

وانتقلت من العراق إلى مصر صورة من خلافات المتكلِّمين، وذلك على أثر أمر المأمون بأخذ العلماء والقضاة بالقول بخلق القرآن، وإرسال منشور لولاة الأمصار بتنفيذ ذلك، فجاء المنشور مصر في جمادى الثانية سنة ٢١٨هـ، فامتَحن والي مصر قاضيَها، فقال بخلق القرآن، وامتحن الشهود والمحدِّثين، وكانت الحركة عنيفة عذِّب فيها خلق كثير، وخاصة في عهد الواثق. قال الكندي: «إن أمر المحنة -محنة خلق القرآن في مصر- كان سهلًا في ولاية المعتصم، لم يكن الناس يؤاخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات المعتصم؛ وقام الواثق سنة ٢٢٧هـ فأمر أن يؤخذ الناس بها، وورد كتابه على محمد بن أبي الليث -قاضي مصر- بذلك، وكأنها نار أضرمت... فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث، ولا مؤذّن ولا معلّم، حتى أخذ بالمحنة، فهرب كثير من الناس، وملئت السجون ممن أنكر المحنة. وأمر ابن أبي الليث بأن يكتب على المساجد: «لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق»، فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعي من الجلوس في المسجد، وأمرهم ألا يقربوه».

وكان طبيعيًّا أن تثير هذه المسألة في الجو المصري الجدل في الاعتزال وأصوله، واعتنقه قوم ورفضه آخرون. ولما جاء المتوكل وأغلق هذا الباب ظلَّ قوم يعتنقون مذهب الاعتزال، ويدعون إليه في العصر الطولوني والإخشيدي، ولكن في شيء من الخفية، فيذكر ابن زولاق أن أبا علي محمد بن موسى القاضي الواسطي كان وجه

المتكلمين بمصر، وكان يعلِّم الاعتزال، وأنه كان بها أبو عمران موسى بن رباح الفارسي أحد شيوخ المعتزلة[١]، وأن سيبويه المصري كان معتزليًا، وكان يتكلم على أصول المعتزلة، ويقول بخلق القرآن، والناس يحتملون منه ما لا يحتملونه من سواه للوثة كانت فيه.

وكل ذلك في العهد الإخشيدي.

ثم ظهر في جو مصر مظهر ديني من نوع جديد على يد ذي النون المصري أحد مؤسسي التصوّف، والذي أحدث ضربًا من الكلام لم يعرف قبل في مصر؛ أصله من إخميم من صعيد مصر من أبوين نوبيّين، وأخذ العلم المعروف في مصر من حديث وفقه؛ ووصف بأنه كان يعرف الكيمياء، ويقرأ الخط الهيروغليفي على البرابي، ورحل إلى بلاد كثيرة كتاهرت بالمغرب، وبيت المقدس وأنطاكية، واليمن وبغداد، ومكة والمدينة، وقابل الرهبان وتحدث إليهم، ثم طلع على الناس في مصر بكلام لم يألفوه، من الكلام في الأحوال والمقامات والحب الإلهي، وأن مصادر المعرفة العقل والنقل، وشيء آخر زاده هو وهو الكشف، وأن هناك علمًا ظاهرًا، وعلمًا باطنًا، ويعرض هذه الأقوال في أسلوب شعري جذاب.

وطبيعي أن تلاقي هذه التعاليم معارضة من الفقهاء الذين لا يؤمنون إلا بالنقل فإن تجاوزوه فبالعقل؛ أما الكشف وعلم الباطن والحب والفناء فشيء لم يسمعوا به فعارضوه، وكان على رأس المعارضين عبد الله بن الحكم شيخ المالكية، وابن أبي الليث قاضي مصر الحنفي القوي الجبار؛ فكلاهما لم يرض عن ذي النون وتعاليمه، فاضطهد واتهم بالزندقة، وأخيرًا أرسل إلى دار الخلافة ببغداد فسجن في المطبق، ولكن مساعي الصوفية ببغداد واتصالهم برجال المتوكل جعلت المتوكل يستدعيه

(١) سيبويه المصري: ١٨.

ويسمع منه ويتأثر بمواعظه، فيرسله إلى مصر مكرَّمًا، ويعيش بعد ذلك تسع سنوات ينشر فيها تعاليمه آمنًا مطمئنًا حتى يموت سنة ٢٤٥هـ.

ومن ذلك الحين وجدت بمصر الحركة الصوفية، وقويت حتى كان لها دخل في عزل بعض الولاة. وتتابع في مصر بعد ذي النون أقطاب الصوفية، مثل أبي الحسن بنان ابن محمد بن حمدان بن سعيد الجمال، أصله من واسط، وصحب الجنيد ووفد على مصر، ورأس الحركة الصوفية، وأنكر على ابن طولون تصرفاته وأمَره بالمعروف ونهاه عن المنكر في غير مبالاة؛ فرووا أنه قدمه لأسد فلم يؤذه فشاع ذكره في مصر، ولما مات خرج في تشييع جنازته أكثر أهلها. ومن كلامه: «أجَلُّ أحوال الصوفية الثقة بالمضمون، والقيام بالأمر، والمراعاة للسر، والتخلي من الكونين، والتعلق بالحق»؛ مات بمصر سنة ٣١٦هـ.

هذه هي الحركة الدينية في مظاهرها المختلفة، وبجانبها كانت حركة لغوية ونحوية عُني بها؛ لأنها مفتاح لفهم القرآن والسنة، وأداة لفهم الأحكام؛ وقد نبغ في هذا العصر ابن وَلاَّد، وأبو جعفر النحاس.

فأما ابن ولاَّد أحمد بن محمد بن الوليد فمصري أصله من تميم، وكان من أسرة عرفت بالنحو هو وأبوه وجدُّه، وقال عنه المبرّد: إنه شيخ الديار المصرية في العربية؛ وقد درس النحو ببغداد على الزجَّاج، ثم أتى مصر ينشر النحو على طريقة العراق، وألَّف كتاب: «الانتصار لسيبويه»، وكتاب: «المقصور والممدود»، وهو يذكر فيه ما ورد من الكلام مقصورًا وممدودًا، فيقول -مثلًا- الأُنَى: واحد ساعات الليل، مقصور يكتب بالياء... وإنَى الشيء: بلوغه وإدراكه، كذلك مقصور، قال تعالى: {إلى طعام غير ناظرين إنه}؛ أي بلوغه وإدراكه... وأما الأناء بفتح أوله فممدود، وهو الانتظار والتأخير؛ قال الحطيئة:

وآنيـــت العـــشاء إلى سُـــهيل أو الـــشِّعرَى فطـــال بي الأنـــاء

والأَناء: واحد الآنية، والأَناة: من قولهم رجل ذو أناة وهي التؤدة؛ قال النابغة: «الرفق يُمْن والأناة سعادة».

ويقال: امرأة أناة؛ وهي التي فيها فتور عند القيام، والأصل: وناة؛ لأنها من ونَى يَني، قال تعالى: {ولا تنيا في ذكرى}.

وهكذا يأتي بكل الكلمات اللغوية التي ورد فيها القصر والمد ويشرحها ويستشهد له ويصرِّفها، وهو اتجاه لغوي طريف.

مات سنة ٣٣٢هـ في الدولة الإخشيدية.

وأما أبو جعفر النحاس فمصري عربي الأصل من مُرَاد؛ وقد تعلَّم النحو كذلك في العراق، وأخذ عن الأخفش الصغير والمبرِّد والزجَّاج؛ وكان هو وابن ولاَّد متعاصرين، زميلين في التعلُّم ببغداد وفي التعليم بمصر. وقد ألَّف «إعراب القرآن»، و«معاني القرآن»، و«المبهج في اختلاف البصريين والكوفيين»، و«شرح المعلقات»، و«شرح المفضليات»، و«شرح أبيات الكتاب» -كتاب سيبويه- و«الاشتقاق»، و«أدب الكُتَّاب» إلخ.

فكانا بعلمهما مصدرًا لحركة قوية لغوية ونحوية في مصر، وتعلَّم عليهما كثيرون. وقد مات النحاس سنة ٣٣٨هـ بعد ابن ولاَّد بست سنوات.

وقد ذكر لنا المتنبي في شعره في كافور أنه كان يدرِّس بمصر فن «الأنساب»، وعدَّ من مضحكات مصر أن الذي كان يدرِّس أنساب العرب نبطي من أهل العراق فقال:

بهـا نبطـيٌّ مـنَ أهـل السـواد يـدرِّس أنـساب أهـل الفـلا

وقد ذكروا أنه يريد ابن حِنزَابه، وهو متحامل عليه؛ فابن حنزابه هذا من أفضل الناس وعلمائهم، وهو ابن وزير العراق الخطير ابن الفرات. وكان ابن حنزابه وزيرًا للدولة الإخشيدية، وكان عالمًا محبًا للعلماء يقرِّبهم ويشجِّعهم ويصلهم بماله، حتى قصده من علماء الأقطار الأخرى كثيرون، وكان يملي الحديث بمصر وهو وزير، ويقصد إليه المحدِّثون يسمعون روايته، وله تآليف في أسماء الرجال والأنساب. وقد أراد المتنبي أن يمدحه فعمل فيه قصيدته: «بادٍ هَوَاكَ صبرت أم لم تصبرا»، ولكنه لم ينشدها، فلما غضب على كافور، وغضب على وزيره وخرج من مصر حوَّلها في مدح ابن العميد، وعرَّض بابن حنزابه.

أما الحركة الأدبية فقد كان الشعر فيها هزيلًا. ومنذ الفتح الإسلامي إلى هذا العهد الطولوني والإخشيدي لم تُخرج مصر شاعرًا كبيرًا يضاهي شعراء العراق أمثال أبي تمام والبحتري وابن الرومي، وهي ظاهرة تستحق النظر؛ فقد كانت الفنون راقية، كما يتجلَّى ذلك في عمارة الفسطاط ومسجد ابن طولون؛ وكما كان فن الغناء لا بأس به، كما يتجلَّى في وصف القيان في العهد الطولوني؛ وكانت هناك العناية بالبساتين والأزهار، ولكن مع هذا كله لم تنبغ الشاعرية لا في العرب الذي وفدوا إلى مصر وأبنائهم، ولا في المصريين الصميمين ممن تعلموا العربية؛ فنجد الفقيه المصري الذي يضاهي أئمة العراق كالليث بن سعد، ونجد المحدِّث الذي يشابه أكبر محدِّثي العراق كابن لَهِيعة، والنحوي الذي يضاهي نحويي البصرة والكوفة كابن ولاَّد، ونجد أتباع الأئمة في هذه العلوم يشبهون الأتباع في العراق، ولكن لا نجد الشاعر النابغ هنا الذي يساوي الشاعر النابغ هناك، فهل هذا لأن الشعر كان لا يرقى إلا في بلاط الخلفاء؟ أو أن نبوغ الشعراء كنبوغ العظماء والزعماء خاضع لقوانين لم

تستكشف بعد، أو لغير ذلك من أسباب؟

على كل حال كان أشهر شعراء مصر في العهد الطولوني الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل، لم يصلنا شعره كاملًا، وإنما هي نتف هنا وهناك؛ في مديح أحمد بن طولون:

لـه يـدٌ كـم خَلّـدت مـن يـدٍ ... سـحابة عمـت بأنوائهـا

وهـو لـدى الهيجـاء ليـثٌ إذا ... مـا ثقلـت قامـت بأعبائهـا

انظـر إلى مـصر بـسلطانه ... تـر الهـدى فـاضَ بأرجائهـا

وربما تظهر مصريّته في ميله إلى الفكاهة، كقوله في ابن المدبِّر صاحب خراج مصر، وكان الشاعر إذا مدحه ولم يرتض شعره أمر من يحمله إلى المسجد، ويفرض عليه أن يصلّي عددًا معلومًا من الصلاة، فقال الجمل:

قـصدنا في أبي حـسن مـديحًا ... كـما بالمـدح تُبْتَجَـع الـولاة

فقـالوا يقبـل المَـدَحات لكـن ... جـوائزه علـيهن الـصَّلاة

فقلـت لهـم: ومـا تغنـي صـلاتي ... عيـالي؟ إنـما الـشأن الزكـاة

فيـأمر لي بكـسر الـصاد منهـا ... فتـصبح لي الـصَّلاة هـي الـصَّلاتُ

وله شعر رواه الكندي في أخبار القضاة، كان يقوله في المناسبات عندما يحدث في مصر بعض الأحداث.

كما كان هناك شعراء آخرون في العهد الطولوني والإخشيدي في مثل منزلة الجمل؛ ولذلك لما جاء المتنبي مصر في عهد كافور ابتلعهم كما يبتلع الحوت الكبير السمك الصغير، ولم يستطع أن يجاريه منهم أحد.

وربما كان حظ النثر الفني أكبر من حظ الشعر، كما يتجلَّى ذلك فيما بقي لنا من رسائل «ابن عبدكان» ككتابه الذي كتبه على لسان أحمد بن طولون لابنه لما خرج عليه؛ ففيه المسحة العراقية، جمعت بين طول نَفَس الجاحظ، وجزالة عمرو بن مسعدة، مع ميل إلى السجع كثيرًا، والمزاوجة دائمًا، وإطناب في اللفظ، وتكرار للمعنى من مثل قوله: «واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلَّك، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك، والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل في الليل، تؤذن بحرب وويل، فإننا نُقسم، ونرجو ألا نجور ونظلم، ألَّا نثني عنك عنانًا، ولا نؤثر على شأنك شانًا،... منفقين كل مال خطير، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل، حتى تستمرّ من طعم العيش ما استحليت، وتستدفع من البلايا ما استدعيت... إلخ»[1].

وكما يتجلى في كتاب «المكافأة» لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية؛ فقد ألَّفه في العهد الطولوني، وبناء على قصص لمن عملوا الجميل فكوفئوا عليه بالجميل؛ فموضوعه طريف، وعَرْضه في أسلوب قوي جزل متين.

إلى جانب هاتين الحركتين الدينية والأدبية، كانت حركة العلوم الفلسفية التي تشمل الطب والنجوم والإلهيات وما إليها، وهي بقية من بقايا مدرسة الإسكندرية؛ وقد كانت لا تزال باقية في مصر، وإن ضعفت بالفتح الإسلامي، وإقبال الناس على الثقافة العربية يتعلمون لغتها، ويبحثون فيما أتت به من دين. فاتجهت أكثر الثقافة إلى الاشتغال بالدين الإسلامي وعلومه، واللغة العربية وعلومها، وبقيت بقية قليلة للفلسفة وما إليها، كان أكثرها من رجال الدين النصارى لامتزاج النصرانية بالأفلاطونية الحديثة، عندما اختلف النصارى في عقائدهم، وتجادلوا في مذاهبهم، والتجأ كل مذهب إلى الاستعانة بالفلسفة اليونانية في تأييد رأيه.

---

(١) الكتاب بطوله في صبح الأعشى: ٧/ ٥ وما بعدها.

وكان أمراء مصر وولاتها يحتاجون إلى الأطباء والمنجِّمين، وقلَّ أن يجدوهم إلا في النصارى. والطب والتنجيم فرعان من فروع الفلسفة اليونانية، كان من اشتغل بهما مضطرًا أن يقرأ الفلسفة اليونانية في إلهياتها وطبيعتها وكيميائها.

فاشتهر من هؤلاء: سعيد بن نوفل النصراني طبيب ابن طولون، كما اشتهر سعيد بن البطريق، «وكان طبيبًا نصرانيًّا من أطباء فسطاط مصر، وكانت له دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم... وقد عيِّن بطريركًا على الإسكندرية ومات سنة ٣٢٨هـ، وله كتب في الطب، والجدل بين المخالف والنصراني... إلخ»[1].

وقد ترجم كتاب «الحيوان» لأرسطو، وكتاب «السماء والعالم» لأرسطو أيضًا.

على أن بعض علماء المسلمين المصريين كان يتصل بهذه الحركة ويتصل برجالها ويقرأ كتبها؛ فابن الداية الذي سبق ذكره كان -كما يقول ياقوت- «أحد وجوه الكتَّاب الفصحاء والحسَّاب والمنجِّمين، مجسطي، إقليدسي، حسن المجالسة، حسن الشعر». ونجده ينقل في كتابه «المكافأة» عن أفلاطون؛ ونجد ذا النون المصري الصوفي المشهور يتحدث عن الرهبان، ويروون في ترجمته أنه كان يعرف: السحر، والطلّسمات، والكيمياء. ويعقد الأستاذ نيكلسون ما في بعض أقواله من شبه بينها وبين أقوال «الأفلاطونية الحديثة».

من هذا نفهم أنه كانت هناك حركة فلسفية في مصر من أثر مدرسة الإسكندرية، ومن أثر الوافدين من العراق، بما ترجموا من كتب، وأن بعض العلماء المصريين اشتغل بها وتأثر وتثقف، وإن كان ذلك في دائرة ضيقة إذا قيست بدائرة علوم الدين واللغة.

---

(١) انظر طبقات الأطباء: ٢/ ٨٦.

وكانت الحركة العلمية في الشام في العهد الطولوني والإخشيدي صورة للحركة في مصر، وربما كانت أصغر منها؛ لأن مركز الولاة الطولونيين والإخشيديين في مصر، ولأن مصر كانت أغنى؛ وكثيرًا ما كان يزدهر العلم في ظل البلاط وتشجيع الأمراء وكثرة المال؛ إلا فن الشعر فقد كان في الشام أرقى منه في مصر، كما سيأتي.

فكان في الشام طائفة كبيرة من المحدِّثين والفقهاء والصوفية والقرَّاء -أمثال إخوانهم في مصر؛ فالإمام الأوزاعي البيروتي المتوفى سنة ١٥٧هـ كان له من الأثر في الشام في الحديث والفقه ما لليث بن سعد والشافعي بمصر. واشتهر بها كثير من المحدثين والفقهاء في هذا العصر كزكريا بن يحيى السَّجْزِي المتوفى سنة ٢٨٩هـ، وكان يعرف بخياط السنَّة؛ ومحمد بن عوف الطائي الحمصي المتوفى سنة ٢٦٩هـ، وكان أعرف الناس بالأحاديث التي رويت في الشام؛ وأبي بكر محمد بن بركة الحميري اليحصبي القنسريني وأمثالهم كثير.

وانتشرت حركة التصوّف من مصر إلى الشام عن طريق ذي النون المصري وأصحابه؛ فظهر في الشام طاهر المقدسي، أخذ التصوّف عن ذي النون المصري وغيره وسماه الشبلي «حبر الشام»، ورويت عنه أقوال كثيرة في التصوّف كقوله: «المفاوز إليه منقطعة، والطرق إليه مطمسة، والعاقل من وقف حيث وقف العوام». كما ظهر أبو عمرو الدمشقي، أخذ التصّوف عن أصحاب ذي النون وغيرهم، مات سنة ٣٢٠هـ، وكان يقول: التصوف غض الطرف عن كل ناقص، ليشاهد من هو منزَّه عن كل نقص. وأبو إسحاق الرقِّي كان من أكبر مشايخ الشام ومتصوِّفيها، مات سنة ٣٢٦هـ إلخ.

ويكاد يكون الطابع لحركة الحديث والفقه والتصوّف في مصر والشام، طابعًا واحدًا لقرب القطرين، وتبادل العلماء الزيارة والرحلة، حتى كان كثير منهم يصعب

عدُّه مصريًّا أو شاميًّا لتوزّع عمره وحياته العلمية بين القطرين.

* * *

وكما كان لمصر فضل في اتجاه بعض العلماء لتدوين تاريخها وخططها على يد ابن عبد الحكم ثم ابن يونس ثم الكندي ثم ابن زولاق، كان للشام فضل من نوع آخر على يد أبي عبد الله محمد بن أحمد المقدسي (٣٣٦هـ إلى نحو سنة ٣٨٠هـ)، فقد رأى أن المملكة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لم توصف وصفًا كافيًا لا من ناحيتها الجغرافية، كوصف المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار والمدن والأمصار والنبات والحيوان، ولا من الناحية الاجتماعية كاللغات والألوان والمذاهب والنقود والمزايا والعيوب، والسعة والخصب والضيق والجدب، ولم يعجبه ما كتبه مَن قبله، وشعر بقصور المؤلّفات في ذلك فجرّد نفسه لهذا وطاف أكثر البلاد الإسلامية، وكتب كتابه: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، وكان فيه من أصدق الرحّالين ملاحظة، وأدقّهم نظرًا، وأحسنهم لموضوعه ترتيبًا؛ وقد عمل كل حيلة والتحق بكل صناعة، وتحمَّل كل مشقة، وأنفق فوق عشرة آلاف درهم، وعرَّض نفسه لكل خطر في سبيل الحصول على المعرفة، وجاءته فكرة «الخرائط» فعملها في كتابه هذا. بل جاءته فكرة الخرائط الملوَّنة، واختيار الألوان المناسبة؛ فالحدود والطرق بالحمرة، والرمال بالصفرة، والبحار بالخضرة، والأنهار بالزرقة، والجبال بالغبرة.

وقد ساح في جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب، ثم بلاد فارس والسند والهند. وألف كتابه هذا بعد هذه الرحلة سنة ٣٧٥هـ، فكان له الفضل الأكبر في هذا الباب.

ولكن لعلَّ أكبر حركة في الشام وأعظمها في الأدب واللغة وعلومها، كانت في ذلك العصر في بلاط الأمراء الحمدانيين في حلب، وخاصة أيام سيف الدولة؛ فقد

فاقت حركة الشعر واللغة والنحو وما إليه نظيرتها في مصر، وربما في العراق أيضًا؛ قال الثعالبي: «لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها -في الجاهلية والإسلام- والكلام يطول في ذكر المتقدمين منهم؛ فأما المحْدَثون فخذ إليك منهم: العَتّابي، ومنهور النَّمَري، والأشجع السُّلَمي، ومحمد بن زرعة الدمشقي، وربيعة الرَّقِّي، على أن في الطائيَّين -يعني أبا تمام والبحتري- اللذين انتهت إليهما الرياسة ي هذه الصناعة كفاية، وهما هما،... فأما العصريون ففيما أسوقه من غرر أشعارهم أعدل الشهادات على تقدم أقدامهم والسبب في تبريز القوم قديمًا وحديثًا في الشعر قربهُم من خطط العرب، ولاسيما أهل الحجاز، وبعدهم عن بلاد العجم، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم.

ولما جَمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة، وحلاوة الحضارة، ورزقوا ملوكًا وأمراء من آل حَمْدان وبني ورقاء، هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب، والمشهورون بالمجد والكرم، والجمع بين آداب السيف والقلم، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينقد، ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل، انبعثت قرائحهم في الإجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا.

وأخبرني جماعة من أصحاب الصاحب ابن عَبّاد أنه كان يُعجَب بطريقتهم المثلَى التي هي طريقة البحتري في الجزالة والعذوبة، والفصاحة والسلاسة، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم، ويستملي الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف حتى كتب دفترًا ضخم الحجم عليها، وكان لا يفارق مجلسه، ولا يملأ أحد منه عينه غيره، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه، وفي سنّ قلمه،

فطورًا يحاضر به في مخاطباته ومحاوراته، وتارة يحله أو يورده كما هو في رسائله[١]. وقد ذكر أنه تخرج في هذه المدرسة الحلبية الحمدانية أبو بكر الخوارزمي، والقاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني مؤلف «الوساطة بين المتنبي وخصومه».

كانت ميزات سيف الدولة -وإن شئت فقل: وعيوبه أيضًا- مشجعة على النهوض بالشعر والأدب والعلم إلى غاية بعيدة؛ فهو عربي من تَغْلِب يعتز بنسبه ومجد بيته، وفيه الطباع العربية التي في البيوتات الكبيرة، يطمح كل الطموح لحسن الأحدوثة، ولذلك كان يهمه أن يكون حوله أعاظم الشعراء يشيدون بذكره ويسير شعرهم في الآفاق مدحًا فيه؛ ثم هو فارس فيه صفات الفروسية من إباء وفخر ونصرة للضعيف، ومعونة للبائس والفقير، يرى المجد والمروءة في الزهادة في المال للاعتزاز بالمجد، والإغداق على الأصدقاء والشعراء وسيلةً للمطمح؛ يهمه جانب الإنفاق كيف يغدق أكثر مما يهمّه جانب العدل في تحصيل المال كيف يجمع، ولهذا يوم مات كثر البكاء منه والبكاء عليه، كما وصفه بعضهم -الصفتان البارزتان فيه هما مجد العرب: الشجاعة والكرم، وهما عنصر المروءة التي كثر تمدّح العرب بها، إلى ملكة جيدة في تقدير الشعر وتذوقه، والإعجاب بجيده إعجابًا لا قيمة للمال بجانبه.

عرف الشعراء والأدباء والعلماء ذلك كله منه فقصدوه من كل جانب، وبالغوا في تحسين بضاعتهم وتجويد فنِّهم، وإحسان عَرْضهم، فنالوا منه ما تمنوا، وكان ذلك نعمة على الفنون والعلوم، وثروة بقيت على الزمان، وإن ضاعت به ثروة آل حَمْدان.

فهو يصوغ دنانير خاصة للصِّلات وزن كل دينار عشرة مثاقيل، عليها اسمه وصورته، ويعطي منها البَبَّغاء الشاعر فيقول:

---

(١) يتيمة الدهر: ١/ ٦ وما بعدها.

نحـــن بجـــود الأمـــير في حَـــرَمٍ ... نرتـــع بـــين الـــسعود والـــنِّعم
أبـــدعُ مـــن هـــذه الـــدنانر لم ... يَجْـــر قـــديمًا في خـــاطر الكـــرم
فقـــد غـــدت باســـمه وصـــورته ... في دهرنـــا عُـــوذة مـــن العَـــدَمِ

فيعطيه سيف الدولة عشرة أخرى.

ولما عزم أبو إسحاق الصابي على الرحيل من حلب طُلب إليه أن يقول شيئًا في سيف الدولة، فقال ثلاثة أبيات، فأعطاه كيسًا مختومًا بختم سيف الدولة فيه ثلاثمائة دينار[1]، وجاء إليه القاضي أبو نصر محمد النيسابوري، فطرح من كمّه كيسًا فارغًا ودُرْجًا فيه شعر استأذنه في إنشاده فأذن له، فأنشد قصيدة أولها:

حَبَـــاؤك معتـــاد وأمـــرك نافـــذٌ ... وعبـــدك محتـــاج إلى ألـــف درهـــم

فأمر له بألف دينار فجعلت في الكيس الفارغ الذي كان معه[2].

ولما أنشده المتنبي قصيدته التي يقول فيها:

يـا أيهـا المحـسن المـشكورُ مـن جهتـي ... والـشكر مـن قِبَـل الإحـسان لا قِـبَلي
أقِـلْ أنِـل أقْطِـع اجمـلْ عَـلَّ سَـلَّ أعِـدْ ... زِدْ هَـشَّ بَـشَّ تفـضَّلْ آذنِ سُرَّ صِـلِ

وقَّع سيف الدولة تحت كل كلمة من هذه، فوقع تحت أنِلْ: نحمل إليك من الدراهم ما تحب. وتحت «أقطع»: أقطعناك ضيعة كذا بباب حلب. وتحت سر: قد سررناك. فقال المتنبي: إنما أردت من التسرّي، فأمر له بجارية[3] إلخ.

---

(١) اليتيمة: ١/ ١٤.
(٢) ابن خلكان: ١/ ٥٢١.
(٣) العكبري: ٢/ ٧٩.

وذاع صيته بالعطاء والجود في سائر الأقطار الإسلامية، فقصده الفقراء والمُعْوِزون، فكان يُكتب إليه في حوائج المحتاجين من العلماء ومن نكبهم الدهر بعد عزَّة. ووضع بديع الزمان الهمذاني مقامة من مقاماته سمَّاها المقامة الحمدانية، أسسها على أن سيف الدولة قد حضر مجلسه جماعة من الأدباء. وقد عُرض عليه فرس جميل، فقال سيف الدولة للأدباء: «أيكم أحسنَ صفته جعلته صلته»، فوصفه أبو الفتح الإسكندري -بطل مقامات البديع- فأعطاه له، والقصة بالضرورة خيالية، ولكنها تمثل صورة سيف الدولة في أذهان الأدباء.

ثم كان مجلسه مجلسًا ممتازًا؛ فقد منح ذوقًا وقدرة على فهم الأدب وإدارة الحديث في المجالس، واستخراج أفضل ما عند العلماء والأدباء بالعطاء والتنافس، فأحيانًا يقول البيت ويطلب من الشعراء أن يجيزوه، فيقول مرة: من يجيز هذا البيت:

لك جسمي تُعِلّهُ فدمي لِمْ تُحِلُّه؟

فيجيزه أبو فراس:

أنا إن كنت مالكًا فلِيَ الأمر كلُّه

وينقد المتنبي مرة في قوله:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك في جَفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كَلْمَى هزيمة ووجهك وضّاح وثغرك باسم

ويفضل سيف الدولة أن يكون نظام البيتين هكذا:

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

ثم يتجادلان في ذلك، كلٌّ يؤيد وجهة نظره(١).

وسأل جماعة من العلماء بحضرته يومًا، هل تعرفون اسمًا ممدودًا وجمعه مقصور؟ فقال ابن خالويه: إني أعرف اسمين لا أقولها إلا بألف درهم، لئلا يؤخذا بلا شكر، وهما: صحراء وصحارى، وعذراء وعذارى.

وكتب الأدب فيها الكثير مما دار في مجلس سيف الدولة بين المتنبي وخصومه مما سبب رحيله.

فلا عجب أن يكون بلاطه أزهى بلاط في عصره. يقول الخوارزمي، حنينًا لأيام قضاها فيه: «وقد رأيت في هذه الحضرة -حضرة أبي محمد العلوي بأصبهان- أقوامًا كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصفا عذب، وعودُ الشباب رطب، وذكرت بهم مآرب هنالك، وأيامًا سُلبتها سلبًا، ونزعت من يدي غصبًا، ودهرًا كأني كنت أقطعه وثبًا»(٢).

فالمتنبي قال فيه أحسن شعره وأقواه وأصدقه عاطفة؛ لأن سيف الدولة كريم يغدق على الشعراء كما قال الشاعر:

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما ... لأجل العطايا، واللُّها تفتح اللُّها

ولأن أبا الطيب وجد في سيف الدولة إلى جانب كرمه فروسية واعتزازًا بالعربية وحياة حربية، وطموحًا إلى المجد، وكلها صفات ينزع إليها المتنبي ويراها مَثَله؛ فكان المتنبي يتغنّى بمَثَله محققًا في سيف الدولة، ولو لم يكن سيف الدولة لكان المتنبي شيئًا آخر. وشعره بعد أن فارقه شعر صناعة إلا ما كان من عتبه على الزمان وحديثه عن

---

(١) انظر اليتيمة: ١/ ١٣.

(٢) رسائل الخوارزمي: ١٧١!

نفسه. وقد صدق إذ قال بعد أن مدح سيف الدولة:

لا تطلبنَّ كريمًا بعد رؤيته ... إن الكرام بأسخاهم يدًا خُتموا

وهذا أبو فراس ابن عم سيف الدولة، والذي يصغره بنحو عشرين عامًا، قد نشأ في حضانة سيف الدولة ورعايته بعد أن قتل أبوه، وتعلّم في ساحته وغزا معه بعض غزواته؛ فقد قال أبو فراس: «غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون في سنة ٣٣٩هـ، وسنّي إذ ذاك تسعة عشر عامًا». وقد أخذ أسيرًا في إحدى غزواته للروم وأرسل إلى القسطنطينية، وبقي فيها أربع سنوات قال فيها أحسن شعره؛ وقد أرسل أكثره إلى سيف الدولة طالبًا منه أن يفديه، عاتبًا أحيانًا، شاكيًا أحيانًا. وإنما كان أجسن شعره لأن وقوعه في الأسر وبعده عن وطنه. أهاج شاعريته ورقّق عاطفته، فامتلأ شعره برقّة الحنين، وحلاوة الحب، وذلّ الأسر:

دعوتك للجفن القريح المسهّد ... لسديّ وللنوم القليل المشرّد

وما ذاك بُخلًا بالحياة وإنها ... لأوّلُ مبذول لأول مُجتدي

ولكنني أختار موت بني أبي ... على سروات الخيل غير موسّد

وآبى وتأبى أن أموت موسدًا ... بأيدي النصارى موت أكمد أكبد

* * *

فلا تقعدن عني وقد سيم فديتي ... فلستَ عن الفعل الكريم بمُقعد

فكم لك عندي من أيادٍ وأنعم ... رفعت بها قدري وأكثرت حُسّدي

* * *

أقلني أقلني عثرة الدهر إنه ... زماني بنَصل صائب النحر مُقصد

ولو لم تنل نفسي ولائك لم أكن ... لأوردها في نصره كل مورد

ولا كنت ألقى الألف زُرقًا عيونها ... بسبعين، فيها كل أشأم أنكد
وإنك لَلمولى الذي بك أقتدي ... وإنك لَلنجم الذي بك أهتدي
وأنت الذي عرّفتني طرق العلا ... وأنت الذي أهديتني كل مَقصد

... إلخ.

ويرثي لحال أمه في قصيدته:

مصابي جليل والعزاء جليل ... وظنّي بأن الله سوف يُزيل

ويبكي وطنه:

ومن مذهبي حب الديار وأهلها ... وللناس فيما يعشقون مذاهب

...إلخ إلخ.

فإن استخرج سيف الدولة من المتنبي مديحًا رائعًا، فقد استخرج من أبي فراس أسى رائعًا.

وكان في بلاط سيف الدولة أبو العباس النامي، وكان من خير الشعراء، وكانت منزلته عند سيف الدولة تلو منزلة المتنبي، يقول في سيف الدولة:

إذا ما عليٌّ أمطرتك سماؤه ... رأيت العلا، أنواؤها تتحلّب
يرجّي ويخشى ضره وهو نافع ... كذا البحر في آذيّه متهيِّب
يروع ويبدو الأنس منه كأنه الـ ... ـهوى لذعه بين الجوانح يَعْذُب
وأزهر يبيضّ الندى منه في الرضا ... وتحمرّ أطراف القنا حين يغضب

ثم كذلك أبو الفرج البَبّغاء أمضى شبابه وزهرة عمره في بلاط سيف الدولة، ثم آخر عمره في بغداد.

كذلك كان من شعرائه الوأواء الدمشقي، وهو شاعر مطبوع، عذب العبارة حسن الاستعارة، جيد التشبيه.

ومن شعره في سيف الدولة:

من قاس جدواك بالغمام فما ... أنصف في الحكم بين الاثنين

أنت إذا جُدت ضاحك أبدًا ... وهو إذا جاد باكيَ العين

ومن شعرائه «الخالديان»[1] أبو بكر محمد بن هاشم، وأبو عثمان سعيد بن هاشم، وهما أخوان. وقد كانا قيِّمين على مكتبة سيف الدولة، قال ابن النديم: قال أبو بكر -وهو أحد الخالدين- وقد تعجّبت من كثرة حفظه وسرعة بديهته ومذاكراته: إني أحفظ ألف سَمَر، كل سمر في نحو مائة ورقة. وكانا مع ذلك إذا استحسنا شيئًا غصباه صاحبه حيًا أو ميتًا، لا عجزًا منهما عن قول الشعر، ولكن كذا كانت طباعهما»[2]، وقد ألفا في اختيار شعر بشار، وابن الرومي، والبحتري، ومسلم بن الوليد.

كما كان من شعرائه ابن نُباته السعدي، وله فيه مدائح كثيرة.

ويطول بنا القول لو عددنا كل ما كان في بلاطه من شعراء، وحسبنا أن نقول: إن هذا الجو الذي خلقه سيف الدولة حثَّ كل من كان عنده شاعرية على قول

(١) النسبة إلى الخالدية بلدة بالموصل.

(٢) فهرست ابن النديم: ١٦٩.

الشعر والإجادة فيه؛ فقيِّما المكتبة -وهما الخالديان- صارا شاعرين، وبائع البطيخ وهو الوأواء الدمشقي صار شاعرًا كبيرًا، وكشاجم «وهي كلمة، مركبة من الكاف من كاتب، والشين من شاعر، والألف من أديب، والجيم من جواد، والميم من منجِّم» قالوا: إنه كان طباخ سيف الدولة، ومع هذا كان شاعرًا ظريفًا، له ديوان، وله كتاب «أدب النديم»، و«خصائص الطرب»، و«المصايد والمطارد».

ثم كان من أشهر خطباء سيف الدولة ابن نُباتة الفارقي صاحب الخطب المشهورة -وهو غير ابن نباتة السعدي الذي تقدم ذكرُه- وامتلأت خطبه بالدعوة إلى الجهاد ليحث الناس على نصرة سيف الدولة في غزواته للروم.

ثم كان في بلاطه من يعد من أشهر اللغويين والنحويين في زمانه، أبو علي الفارسي، وابن خالويه، وابن جني؛ فأمَّا أبو علي الفارسي فكان أكبر نحوي عالم بالعربية في زمنه؛ عاش في حلب مدة وفي العراق مدة، ويعد هو وتلميذه ابن جني مؤسسي مدرسة في النحو والصرف تستخدم القياس إلى أقصى حد ولا تقف عند النص، فالفرق بينها وبين غيرها كالفرق بين الحنفية في اعتمادهم الكبير على القياس، والمالكية في الاعتماد على الحديث.

لقد رحل أبو علي إلى حلب سنة ٣٤١هـ، ونزل في ساحة سيف الدولة وشارك في اجتماعاته الأدبية، وكان بينه وبين المتنبي مناظرات في مسائل نحوية ولغوية.

وابن جني تلميذ أبي علي الفارسي، وموسِّع مبادئه النحوية والصرفية؛ وإذا عبرنا في النحو والصرف تعبيرنا في الفقه، قلنا: إنه مجتهد فيهما، له آراء مبتكرة واتجاهات انفرد بها[1].

---

(١) انظر ما كتب عنه في هذا الجزء قبل.

وقد توثقت الصلة بين ابن جني والمتنبي في بلاط سيف الدولة، فكان يناظره فيما يرد في شعره «المتنبي» مما يشبه أن يكون خروجًا على النحو أو اللغة، حتى قال فيه المتنبي: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس». وقد شرح ديوان المتنبي شرحًا استفاد منه كل من شرح الديوان بعده؛ لاتصاله بالمتنبي ومعرفته بظروف شعره التي كثيرًا ما تحدد المعنى، وتمنع التأويلات.

وابن خالويه من أكبر الأئمة في زمنه في اللغة والنحو والأدب وعلوم القرآن. وقد دخل حلب في أيام سيف الدولة، وكان إمام مجلسه، وله مع المتنبي مناظرات كانت في بعضها حادة، ولم تكن العلاقة بينهما حسنة؛ فالمتنبي لم يقدر علمه التقدير الجليل، وابن خالويه لم يقدر شعره التقدير الواجب، ثم كانا يتحاسدان ويتغايران على قرب المنزلة من سيف الدولة، فكان في القصر حزبان: حزب للمتنبي منه ابن جني النحوي وأبو الفرج البيغاء الشاعر، وحزب عليه منه ابن خالويه اللغوي وأبو فراس الشاعر.

ثم كان في بلاط سيف الدولة الفيلسوف الكبير الفارابي؛ درس في بغداد، ثم جذبته شهرة بلاط سيف الدولة في حلب، فرحل إليه وأقام في كنفه لا يأخذ منه من المال إلا ما يسد رمقه «أربعة دراهم في اليوم» ويعيش عيشة التصوف، ويعلِّم طلابه في الحدائق التي حول حلب، ويكتب كتبه في المنطق والإلهيات والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى. وقد بقي في الشام إلى أن مات سنة ٣٣٩هـ.

وكان حوله أطباء يعنون بالطب والفلسفة، إذ كان الطب فرعًا من فروعها. ويذكر ابن أبي أصيبعة في «طبقات الأطباء» أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون طبيبًا منهم عيسى الرَّقِّي. وكان سيف الدولة يعطي عطاء لكل عمل، وكان عيسى الرقي يأخذ أربعة أرزاق؛ رزقًا بسبب الطب، ورزقًا بسبب ترجمة الكتب من

السرياني إلى العربي، ورزقين بسبب علمين آخرين[1].

* * *

هذا بلاط سيف الدولة يزخر بالشعر والمناظرات اللغوية والنحوية، ويزينه الفارابي بفلسفته، ويشع هذا النتاج في المملكة الإسلامية كلها وخاصة الشام.

ومنه يستنشق أبو العلاء المعري أول عهده بالدراسة؛ فقد ولد بالمعرَّة سنة ٣٦٣هـ وهي بلدة تابعة لحلب. ولئن كان سيف الدولة قد مات قبل ولادة أبي العلاء بثمان سنين، فإن الحركة العلمية والأدبية بها لم تكن ماتت؛ فشعر الشعراء يُروى، وتلاميذ ابن خالويه وابن جني يروون علمهما باللغة والأدب والنحو والصرف، وتلاميذ الفارابي يروون فلسفته. فلما انتقل أبو العلاء من المعرَّة إلى حلب للدرس وجد لكل ذلك مهيَّأ فاستفاد منه؛ وجد الناس يروون شعر أبي الطيب ويعجبون به فسمع منهم، وسمع محمد بن عبد الله بن سعد النحوي راوية أبي الطيب، وسمع من تلاميذ ابن خالويه، فيقول في بعض رسائله: «حدَّثني أبو القاسم المبارك عن ابن خالويه». ولا بد أن يكون لقي بعض تلاميذ الفارابي وأخذ عنهم.

وقد أقام أبو العلاء في حلب نحو عشر سنوات ينهل من موارد العلم؛ فحركة الأدب واللغة والفلسفة التي أحياها سيف الدولة لها فضل على أبي العلاء وغيره من العلماء والأدباء.

* * *

ثم جاءت الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام، والحق أنها أتت بحركة علمية عظيمة نشيطة. وقدَّمت العلم والأدب والفنَّ في مصر والشام

---

(١) طبقات الأطباء: ٢/ ١٤٠.

خطوات، حتى لا يعد شيئًا بجانبها ما كان في العهد الطولوني والإخشيدي، ويصح أن تقارن وتساوى بما كان في العراق وخاصةً العلوم العقلية والفلسفية فإنها نبغت فيها. ويرجع ذلك إلى أمور:

أولها: أن الفاطميين جاءوا بمذهب شيعي له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنَّة في مصر والعراق، كعصمة الأئمة ونحو ذلك، وتأتي بشعائر ظاهرة مخالفة لشعائر السنيين كذلك، كالأذان: بحيَّ على خير العمل، والاحتفاء بعاشوراء وعيد الغدير. فإتيان الفاطميين بهذا أوجد حركة عنيفة للتأييد من جهة والتفنيد من جهة، فهبَّ علماء من مصر يفنِّدون هذه الآراء، وكان العراقيون أجرأ لأنهم غير خاضعين لسلطانهم كالمصريين والشاميين. ولجأ الخليفة العباسي إلى العلماء يستحثهم على القول بفساد النسب الباطني، كما لجأ إلى الغزالي يستدعيه لتأليف كتاب «فضائح الباطنية». وهكذا كل هذه العقول تتحرك وتجتهد وتؤلف وتجادل وتناضل، فكان من هذا النشاط العقلي الكبير، واستتبع ذلك نشاط الفاطميين في إيجاد المكاتب ومجالس الدعاة في القصر والمساجد وبيوت العظماء، وتأليف الكتب، وتنظيم الدعوة وغير ذلك.

وكان أن التجأ الفاطميون إلى الفلسفة اليونانية يستعينون بها على تأييد الدعوة الشيعية، ويستمدون الآراء من أقوال أفلاطون وأرسطو، وسائر حكماء اليونان، كما فعلت الأديان الأخرى عند اشتداد الجدل، كالنصارى واليهود عند افتراقهم فرقًا، وكما فعل المعتزلة عند جدالهم مع اليهود والنصارى، وهذا سبب من أسباب تشجيع الفاطميين للفلسفة.

ثم كان أن رأينا عهد الفاطميين في مصر والشام مصحوبًا بتسامح شديد مع اليهود والنصارى، واستخدامهم في أدق شئون الدولة، وتسلطهم على كثير من

أمورها؛ ولعل أسَّ دعوتهم كان توحيد العالم الإسلامي تحت سلطانهم من غير مراعاة عصبية دينية ولا جنسية، فكانوا يخاطبون كل قوم بما يقربهم إلى الدعوة، وكان من ذلك تسامحهم مع اليهود والنصارى واستخدامهم، وإطلاق الحرية لهم إلا إذا أحسوا ثورة من الشعب لهذا التسامح فيتراجعون، كل هذا لأن أغراضهم السياسية والاجتماعية كانت أقوى من أغراضهم الدينية. فيعقوب بن كِلِّس يهودي الأصل، ماهر ماكر، مثقف ثقافة واسعة، حسن التدبير، واسع الحيلة، باذل للمال، راغب في الجاه، لمع اسمُه في العهد الإخشيدي، وأسلم وتعلَّم القرآن والحديث والأدب العربي، وسافر إلى المغرب واتصل بجوهر القائد مولى المعز لدين الله، وبذل له علمه عن مصر، وأعانه بآرائه في وسائل فتحها، ورجع بصحبة الجيش الفاتح، وخدم المعز وارتقى حتى كان وزيرًا للعزيز بن المعز، وهو الذي وضع قواعد الدولة ونظَّمها؛ وكان له إلى هذا الجانب السياسي الإداري جانب علمي، فشجَّع العلماء، ورتَّب المجالس، وبذل العطاء لكل فروع العلم، وربط بين العلم والتشيع، وبين التشيع والفلسفة، وله مجالس لعامة العلماء، ومجالس لخاصة من العلماء، وهؤلاء هم الذين يفلسفون هذه الأمور؛ ووضع كتابًا في فقه الشيعة يقول: إنه مما سمعه من المعز والعزيز، كان يقرؤه في المسجد، ويقرؤه العلماء ويفتون منه؛ وكان يكون كل شيء في الدولة؛ يوجِّه سياستها وإدارتها. ولما مات صلَّى عليه العزيز بنفسه، وألحده بيده، وأمر بغلق الدواوين أيامًا بعده[1].

فيظهر لي أنه كان له دخل كبير في تأسيس الحركة العلمية على هذا النمط وإدماج الفلسفة فيها وتوجيهها الجهة التي توجهتها، وتشجيعه اليهود والنصارى على الاشتغال العلمي والمشاركة في الإدارة وفلسفة الدعوة.

---

(١) انظر ابن خلكان: ٢/ ٤٩٥.

وكانت زوجة «العزيز» نصرانية على مذهب الملكية، وكان لها أخوان أحدهما اسمه «أرميس» صيَّره بطركًا على بيت المقدس، والآخر «أرسانيس» صيَّره بطركًا للملكية على القاهرة ومصر، وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته[1].

وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز في تسامحه مع النصارى والسماح بإعادة بعض الكنائس.

وقد ولدت هذه الزوجة النصرانية من العزيز بنتًا هي المسمَّاة بست الملك، وكانت -كما يصفها النويري- قوية العزم بصيرة بالأمور، وكان لها أثر كبير في أبيها، وفي توجيه نحو سياسة التسامح مع النصارى، كما كانت في عهد أخيها الحاكم بأمر الله ذات أثر فعَّال فيما وقع من أحداث.

وقد سمح العزيز هذا لبطريرك الأشمونيين أن يناظر رجال الدين مثل القاضي ابن النعمان في العقائد الدينية.

وفي السنتين الأخيرتين لحكم العزيز تولَّى الوزارة بعد يعقوب بن كلِّس عيسى بن نسطورس النصراني.

ثم مما شجع على اشتغال الفاطميين بالفلسفة ما كان لهم من رأي في أن للدين ظاهرًا وباطنًا، ومعنى صريحًا ومعنى مئولًا، فهذا يترك للخيال المجال، ويجعل الفكر يسبح في الفلسفة يأخذ منها ويلصقها بالدين، كما نرى ذلك بوضوح في رسائل إخوان الصفا -وهم شيعيون باطنيون- ولذلك كانت الفلسفة ألصق بالتشيع منها بالتسنن، نرى ذلك في العهد الفاطمي، والعهد البويهي؛ وحتى في العصور الأخيرة كانت فارس أكثر الأقطار عناية بدراسة الفلسفة الإسلامية ونشر كتبها. ولما جاء

---

(١) المكين: ابن العميد.

جمال الدين الأفغاني مصر في عصرنا الحديث -وكان فيه نزعة تشيع، وقد تعلَّم الفلسفة الإسلامية بهذه الأقطار الفارسية- كان هو الذي نشر هذه الحركة في مصر.

ثم إن المقريزي يقول: كان الفاطميون يتدرجون في دعوتهم؛ فإذا تمكَّن المدعو من التعاليم الأولى «أحالوه على ما تقرر في كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهي وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية؛ حتى إذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعي قناعه، وقال إن ما ذكر من الحدوث والأصول رموز إلى معاني المبادئ، وتقلب الجواهر، وإن الوحي إنما هو صفاء النفس، فيجد النبي في فهمه ما يُلقى إليه ويتنزل عليه فيبرزه إلى الناس، ويعبِّر عنه بكلام الله الذي ينظم به النبيُّ شريعته بحسب ما يراه من المصلحة في سياسة الكافة، ولا يجب حينئذ العمل بها إلا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء... ثم قال: ومن جملة المعرفة عندهم أن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما هم لسياسة العامة، وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة... ثم يقول: إن لهم في هذا مصنفات كثيرة اختصرت منها ما تقدم ذكره»[1].

ويروي صاحب «الفرق بين الفرق» أن عبيد الله بن الحسن القيرواني أحد زعماء الإسماعيلية، كتب إلى أحد دعاة المذهب سليمان بن الحسن أبي سعيد الجنابني يقول: «وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا»، ويقول الشهرستاني: «إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة، وصنَّفوا كتبهم على هذا المنهاج»، ويفيض في بيان ذلك. ويقول دوزي: «إن ابن ميمون -وهو واضع الأساس للتعاليم الباطنية والإسماعيلية- لم يكن يبحث في أنصاره المخلصين بين الشيعة الخلَّص، إنما كان يبحث عنهم بين الثنوية والوثنيين، وتلاميذ الفلسفة

(١) خطط المقريزي: ١/ ٣٩٥.

اليونانية، وخاصة الأخيرين، فإليهم وحدهم أفضى بسرِّه، وكنه عقيدته، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالًا وهزؤًا، وأن العامة ليسوا أهلًا لفهم هذه المبادئ، إلا أنه كان يستعين بهم، ولا يصدمهم. وكان دعاته يظهرون في أثواب مختلفة، ويحادثون كل طبقة باللغة التي يفهمونها».

والواجب ألا يلصق هذا بكل الشيعة، ولا كل الفاطمية، ولا كل قواد الحركة، وإنما يصح أن يلصق بفئة من زعمائهم استغلّت التشيع لأغراض في أنفسهم. وعلى كل حال كان هذا سببًا آخر لاشتغال الخاصة بالفلسفة وتعليل انتشارها في العهد الفاطمي مع ضعف الاشتغال بها قبلهم في العهد الطولوني والإخشيدي، وبَعْدهم في العهد الأيوبي. ثم كثرة المال في العهد الفاطمي؛ وميل الخلفاء إلى الإمعان في الترف والنعيم، شجعت الفنون على الرقي، فما خلَّفه الفاطميون من صناعة راقية، وفنٍّ دقيق، قلَّ أن يُبارى.

على كل حال نشطت الحركة العقلية في العصر الفاطمي في مصر والشام نشاطًا كبيرًا، وكان أهم الحركات الحركة الدينية، إذ أراد الفاطميون تشييع المصريين والشاميين، وكان هؤلاء يريدون أن يتمسكوا بالسنية فجد الفاطميون في دعوتهم جدًّا كبيرًا.

لقد حرص المصريون أول الأمر على البقاء على سنيتهم، واشترطوا عند المفاوضة في تسليم القطر المصري هذا الشرط، وكتب لهم جوهر بأمر المعز كتابًا يتضمن التزام حرية العقيدة، فلا يجبرون على التشيع. وجاء فيه: «ثم إنكم ذكرتم وجوهًا التمستم ذكرها في كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم وتطمينًا لأنفسكم، فلم يكن لذكرها معنى، ولا في نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سُنَّة واحدة، وشريعة متينة، وهي إقامتكم على مذهبكم، وأن تُتْرَكوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في

العلم، والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة، رضي الله عنهم والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجري الأذان والصلاة، وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد، على ما أمر الله في كتابه، ونَصَّه نبيُّه في سُننه» إلخ[1].

ولكن لما دخل الجيش وتمكَّن من مصر، وانتقل المعزُّ إلى القاهرة، لم يعمل بهذا العهد، وجدَّ الفاطميون في تشييع المصريين، فزيد في خطبة الجمعة: «اللَّهمَّ صلِّ على محمد النبي المصطفى، وعلى عليٍّ المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سِبْطي الرسول، الذي أذهبت عنهم الرجس وطهَّرتهم تطهيرًا، اللَّهمَّ صلِّ على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين»[2].

«وفي يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ صلَّى جوهر الجمعة في جامع ابن طولون، وأذَّن المؤذِّنون: حيَّ على خير العمل. وهو أول ما أذِّن به في مصر»[3].

«ولما وصل المعزُّ إلى القصر خرَّ ساجدًا، ثم صلَّى ركعتين، وصلَّى بصلاته كل من دخل معه -وكان ذلك سنة ٣٦٢هـ- وفي غد هذا اليوم خرج جماعة الأشراف والقضاة والعلماء والشهود ووجوه أهل البلد وسائر الرعية، لتهنئة المعز. وأمر المعزُّ بالكتاب على المشايخ في سائر مدينة مصر: خيرُ الناس بعد رسول الله صلى الله عليه

(١) اتعاظ الحنفاء: ٦٩.

(٢) المصدر نفسه: ٧٧.

(٣) ص٧٩.

وسلم أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»[١].

«ولثمان عشرة من ذي الحجة من هذه السنة وهو يوم «غدير خُم»[٢] تجمَّع خلق من أهل مصر والمغاربة للدعاء، فأعجب المعز ذلك، وكان هذا أول ما عمل عيد الغدير بمصر»[٣].

ثم اتخذوا يوم عاشوراء يوم بكاء على الحسين، وكانوا يجتمعون عند قبر كلثم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق، وقبر نفيسة.

وضُربت الدنانير في أيام المعز، وعلى أحد وجهيها «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. عليٌّ أفضل الوصيين، وزير خير المرسلين». وفي أيام العزيز أبطل سنة ٣٦٣هـ صلاة التراويح من جميع مساجد مصر.

وكانت تحدث فتن ومصادمات بين المصريين السنيين والشيعة في المناسبات المختلفة.

فقد روي أنه قطعوا لسان من احتجَّ على منع صلاة التراويح. وفي سنة ٣٨١هـ

---

(١) ص٩٠.

(٢) غدير خم: موضع على ثلاثة أميال من الجُحفة، وهو مجتمع ماء تصب فيه عين وحوله شجر كثير. وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة عن البراء بن عازب قال: «كنا مع رسول الله في سفر لنا بغدير خُم، ونودي: الصلاة جامعة، فصلَّى الظهر، وأخذ بيد علي بن أبي طالب، فقال: ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى، فقال: من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللَّهم وال من والاه، وعاد من عاداه»، وأول من اتخذه عيدًا معز الدولة البويهي سنة ٣٥٢هـ، ثم في مصر سنة ٣٦٢هـ.

(٣) ص٩٤.

ضُرب رجلٌ من أهل مصر، وطيف به في المدينة لأنهم وجدوا عنده كتاب «الموطأ» لمالك بن أنس[١].

وفي سنة ٣٩٣هـ عوقب رجل بدمشق وطيف به في المدينة، ونادوا عليه: «هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر»[٢].

ولكن هذه السياسة لم تكن ثابتة مطردة، بل كانت قلقة مضطربة كاضطراب سياسة الفاطميين؛ فأحيانًا يبالغون في اضطهاد أهل السنَّة، وأحيانًا يسمحون لهم بحريتهم، كما كانوا أحيانًا يضطهدون اليهود والنصارى إلى أقصى حد، وأحيانًا يبالغون في إكرامهم إلى أقصى حد.

وقد رتَّب الفاطميون الدعوة، وقووها وأحكموها، وجعلوا عليها رئيسًا سموه «داعي الدعاة»، ومنزلته تلي قاضي القضاة، ويتزي بزيِّه، واشترطوا فيه أن يكون عالمًا بجميع مذاهب أهل البيت، وتحته اثنا عشر نقيبًا، وله نواب كنواب الحكم في سائر البلاد؛ ويحضر ما يقال في الدعوة ويقره داعي الدعاة، ثم يقره الخليفة، ويتلى ما يحضر يوم الاثنين والخميس على الرجال في مكان، وعلى النساء في مكان. وهناك مجالس للعامة، ومجالس للخاصة، وكانت تسمى مجالس الدعوة، مجالس الحكمة[٣].

واتخذت المساجد الكبيرة مركزًا لهذه الدعاية كمسجد عمرو في الفسطاط، ومسجد ابن طولون، والأزهر، والمساجد الكبرى في البلدان.

وبجانب هذه الدعوات الظاهرة دعوات سرية لا تقال إلى لخاصة المخلصين،

---

(١) خطط المقريزي: ٢/ ٣٤١.

(٢) النجوم الزاهرة: ٢/ ٩١.

(٣) انظر: خطط المقريزي: ١/ ٣٩١.

يقول الخليفة لداعي الدعاة في كتاب له: «واتل مجالس الحكم التي تخرج إليك في الحضرة على المؤمنين والمؤمنات، والمستجيبين والمستجيبات في قصور الخلافة الزاهرة، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة، وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها، ولا تبذلها إلا لمستحقها، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله، ولا تستقل أفهامهم بتقبله». ويقول: «ولا تُلْقِ الوديعة إلا لحفَّاظ الودائع، ولا تلق الحبَّ إلا في مزرعة لا تُكْدِي على الزارع، وتوخ لغرسك أجَلَّ المغارس» إلخ[1].

وجاء قومٌ من العلماء المغاربة في ركب المعز، وهم ماهرون في الدعوة، واقفون على أسرار تعاليم أهل البيت، لعل من أشهرهم النعمان بن محمد بن حَيُّون الذي تولَّى القضاء في مصر على مذهب أهل البيت هو وأولاده وأسرته عهدًا طويلًا في الحكم الفاطمي؛ وكانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء وبالدعوة وبالتأليف في المذهب الشيعي. وكان النعمان هذا مالكي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية، وألَّف فيه تصانيف كثيرة، قال ابن زولاق: إنه ألَّف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع، وكان في غاية الفضل من أهل القرآن والعلم بمعانيه، وعالمًا بوجوه الفقه، وعلم اختلاف الفقهاء، واللغة والشعر والمعرفة بأيام الناس، مع عقل وإنصاف، وله ردود على المخالفين له، ردَّ على أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن سريج[2]؛ ثم ابنه محمد بن النعمان قاضي المعزّ والعزيز، وكان واسع العلم في الفقه والتاريخ والنجوم، يقضي بين الناس، ويقرأ في القصر علوم آل البيت، ويزدحم الناس على سماعه حتى يموت بعضهم من الزحام؛ كما كان من أشهرهم عبد العزيز بن محمد بن النعمان، كان من أعلم الناس بفقه الإمامية. قال ابن كثير: إنه ألَّف في العقائد الشيعية الكتاب المسمَّى «البلاغ الأكبر والناموس الأعظم». وقد ردَّ

(١) صبح الأعشى: ١٠/ ٤٣٦.

(٢) وفيات الأعيان: ٢/ ٢٤٦.

على هذا الكتاب أبو بكر بن الباقلاني.

كان في مصر والشام كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية، وكانوا لا يرون التشيع، فكانوا يستنكرون تعاليمهم، ولكن في تحفظ؛ لأن الدولة للتشيع.

ولهذا نرى قلَّة الفقهاء المالكية والشافعية والحنفية في مصر والشام في هذا العصر، وخاصةً في أول عهد الفاطميين أيام قوتهم -ومع هذا نرى أمثال أبي بكر محمد الثَّعالبي المالكي إمام المالكيين في عهده، كانت حلقته في جامع الفسطاط تدور على سبعة عشر عمودًا لكثرة من يحضرها، توفي سنة ٣٨٠هـ. ولا بد أن يكون ذلك في فترة فترت فيها حدَّة التشيع.

ولكن على كل حال أنتجت هذه الحركة حياة فكرية نشيطة. وكما ذكرنا كانت الحركة الفلسفية تشايع التشيع، فامتزجت الفلسفة بالدعوة الشيعية.

واستتبعت الدعوة للتشيع تنظيم وسائل الدعاية من إنشاء المساجد ودور الكتب. فالمساجد كانت لهذا العهد هي المدارس وهي المحاريب، وهي أمكنة العبادة، وهي مكان الخطب السياسية فيما يجدُّ من الأحداث، فكانت تقوم بوظائف اجتماعية أكثر جدًّا مما تقوم به الآن.

فلما كان المسجدان الكبيران في مصر، مسجد الفسطاط ومسجد ابن طولون، وكانا مركزي التعليم السُّني من قَبْل الفاطميين، دعا الأمرُ عند إنشاء القاهرة إلى إنشاء مساجد تقام فيها الصلوات، وتُنشر منها الدعوة الشيعية بجانب تلوين مسجدي مصر بالتشيع أيضًا، وتكُونُ أيضًا مركزًا لنشر المبادئ السياسية والاجتماعية التي يُراد نشرها، فأُسِّس الأزهر لهذا الغرض؛ بناه جوهر قائد المعز، وأقيمت فيه أول جمعة في شهر رمضان سنة ٣٦١هـ، وكان الخليفة الفاطمي يخطب

فيه بنفسه كل جمعة إلى أن أنشأ الحاكم جامعه سنة ٣٨٠هـ، فوزعت الخطبة على المساجد الأربعة؛ وكان الخليفة يخطب في الجامع الحاكمي خطبة، وفي الأزهر خطبة، وفي جامع ابن طولون خطبة، وفي جامع عمرو بن العاص خطبة، محفوفًا بالوزير والقاضي وداعي الدعاة.

واتخذ الأزهر كغيره مدرسة لدراسة المذهب الشيعي، قال المقريزي: «إن أول ما درس بالأزهر الفقه الفاطمي على مذهب الشيعة، فإنه في شهر صفر سنة ٣٦٥هـ جلس علي بن النعمان القاضي بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه في الفقه عن أهل البيت، ويُعرف هذا المختصر «بالاقتصار» وكان جمعًا عظيمًا، وأثبت أسماء الحاضرين» وألَّف يعقوب بن كلِّس الوزير السابق الذكر كتابًا في الفقه يتضمن ما سمعه من المعزّ، وهو مبوَّب على أبواب الفقه يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية، وكان له مجلس في يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل، وكان يجلس أيضًا في يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه. وأجرى العزيز بالله الأرزاق لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير، وأمر العزيز أيضًا لهؤلاء الفقهاء ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر؛ فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تُصلَّى صلاة العصر، وكان عدتهم خمسة وثلاثين رجلًا.

وبقي الأزهر مركز الفاطمي إلى أن بنى الحاكم جامعه، فتحلَّق فيه الفقهاء الذين يتحلَّقون في الجامع الأزهر.

ووقَّف الحاكم الأوقاف على الأزهر، وعلى جامع راشدة، وجامع المقس، وعلى دار الحكمة، من عقار وكتب.

ثم عنيت الدولة الفاطمية بالكتب عناية كبيرة، فكان من أشهر خزائن القصور

الفاطمية خزانة الكتب. وقد نقل المقريزي عن المسبِّحي -مؤرخ الدولة الفاطمية، والذي عاش في كنفها- أنه كان بخزانة العزيز نيف وثلاثون نسخة من كتاب «العين» للخليل ابن أحمد، وما ينيف على عشرين نسخة من «تاريخ الطبري»، ومائة نسخة من «الجمهرة» لابن دريد -ثم قال: إنه كان في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة من جملتها خزانة فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة -يعني: الفلسفة والطب والإلهيات وما إليها- هذا إلى العناية بالناحية الأثرية من اقتناء الكتب بخطوط المؤلِّفين، وما عني فيها بحسن الخط والتجليد. وينقل المقريزي أيضًا عن ابن الطوير أن كل خزانة تحتوي على عدة رفوف، والرفوف مقطَّعة بحواجز، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلَّدات ويسير من المجردات، فمنها الفقه على سائر المذاهب، والنحو واللغة، وكتب الحديث، والتواريخ وسير الملوك، والنجامة والروحانية والكيمياء -من كل صنف النسخ- ومنها النواقص التي ما تُمِّمت -كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة[1].

وقد ذكر المقريزي أيضًا أنه دخل هذه المكتبة «مكتبة الفاطميين» أحد السياح، فرأى فيها مقطعًا من الحرير الأزرق غريب الصنعة فيها صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها، وجميعُ المواطن المقدسة مبيَّنة للناظر، مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب، وغيرها بالفضة والحرير.

ثم أسَّس الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥هـ. وقد اختار هذا الاسم رمزًا

(١) خطط المقريزي: ١/ ٤٠٨ وما بعدها.

إلى الدعوة الشيعية؛ لأن مجالس الدعوة كانت تُسمَّى مجالس الحكمة[١]. وكانت تسمى هذه الدار أيضًا دار العلم، وصفها المسبِّحي فقال: «فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها. ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها، وجلس فيها القراء والمنجِّمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت، وعلقت على جميع أبوابها الستور، وأقيم قوام وخدام وفراشون وغيرهم وُسموا بخدمتها. وحصل في هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التي أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعًا لأحد قطُّ من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها... وحضرها الناس على طبقاتهم، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم. وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر... وفي سنة ٤٠٣هـ أحضر «الحاكم» جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الأطباء إلى حضرته، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه؛ ثم خلع على الجمع وصرفهم... ووقف الحاكم بأمر الله أماكن في فسطاط مصر عليها. وقد استمرت على هذا الوضع إلى سنة ٥١٦هـ، حيث كثرت فيها المناقشات الدينية التي سببت فتنًا، فأغلقت ثم أعيد فتحها[٢].

فهي بهذا الوصف مكتبة قيِّمة، ومدرسة تدرَّس فيها العلوم المختلفة وقاعة مناظرات.

---

(١) الخطط: ١/ ٣٩١.

(٢) الخطط: ١/ ٤٥٨.

كان بجانب الحركة الدينية من سُنية وشيعة حركات أخرى مدينة، من ذلك حركة تاريخية؛ فقد نبغ من مؤرِّخي هذا العصر الشابُشْتِي؛ وهو أبو الحسن علي بن محمد، وكان في عهد العزيز بن المعزّ، وكان نديمه وجليسه، والقيِّم على خزانة كتبه، اشتهر بكتابه «الديارات»، ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة ومصر، وجميع الأشعار التي قيلت في كل دير وما جرى فيه، وكان من حسن الحظ بقاء هذا الكتاب إلى عصرنا هذا مخطوطًا ينتظر من ينشره. توفي سنة ٣٨٨هـ.

كما نبغ من المؤرِّخين في العصر الفاطمي «المسبِّحي»، وهو عزُّ الملك محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الحرَّاني الأصل، المصري المولد، وكان من أقطاب مصر في العلم والسياسة والإدارة؛ تولَّى للحاكم بأمر الله بعض ولايات الصعيد، ثم تولَّى ديوان الترتيب، وعني بتاريخ مصر، وألَّف فيها تاريخه الكبير، قال هو فيه: «إنه التاريخ الجليل قدره، الذي يُستغنى بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه، وهو أخبار مصر ومن حلَّها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء، وما بها من العجائب والأبنية، واختلاف أصناف الأطعمة، وذكر نيلها، وأحوال من حلَّ بها إلى الوقت الذي كتبنا فيه تعليق هذه الترجمة، وأشعار الشعراء، وأخبار المغنِّين، ومجالس القضاة والحكام والمعدّلين «الشهود»، والأدباء والمتغزِّلين وغيرهم، وهو ثلاثة عشر ألف ورقة»[1]. فكان ينظر إلى التاريخ نظرة اجتماعية. ومن الأسف أن لم يصلنا من هذا الكتاب لا قطعة مخطوطة، وفقد مع ما فقد من آثار الفاطميين الجليلة. ويدلنا ما نقله المقريزي و«النجوم الزاهرة» عن هذا الكتاب أنه جليل القدر، دقيق النظر، مفيض في الوصف، جميل التعبير.

وله كتب أخرى كثيرة، منها: كتاب «درك البغية» في وصف الأديان والعبادات

(١) ابن خلكان: ١/ ٧٣٦.

٣٥٠٠ ورقة، وكتاب «الأمثلة للدول المقبلة» يتعلَّق بالنجوم والحساب في ٥٠٠ ورقة.

إلى كثير من الكتب الأدبية في النوادر والغزل، والأغاني ومعانيها وغير ذلك، عاش المسبِّحي من «٣٦٦هـ - ٤٢٠هـ».

ثم القُضَاعي؛ أبو عبد الله محمد بن سلامة تولَّى القضاء بمصر؛ وقد اشتهر بوضعه كتابًا في خطط مصر سمَّاه «المختار في ذكر الخطط والآثار» كان عونًا للمقريزي على خططه؛ وقد أوفده المستنصر الخليفة الفاطمي إلى تيودورا إمبراطورة القسطنطينية سنة ٤٤٧هـ ليتحدث في الصلح بينهما؛ وقد مات سنة ٤٥٤هـ.

ثم كانت حركة أخرى طبية فلسفية زياضية علمية، اشتهر فيها محمد بن أحمد بن سعيد التميمي؛ أصله من بيت المقدس، ودخل مصر في العهد الفاطمي، واشتهر بالطب وخاصةً في خواص العقاقير وتركيب الأدوية؛ وصحب يعقوب بن كلِّس والخليفة العزيز، وصنَّف له كتابًا كبيرًا في عدة مجلدات سماه «مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء، والتحرز من ضرر الأوباء». ولقي الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم، واختلط بأطباء الخاص القادمين من أرض المغرب في صحبة المعز عند قدومه، والمقيمين بمصر من أهلها، وكان منصفًا في مذكراته، غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة. وكان التميمي هذا موجودًا بمصر في حدود سنة ٣٧٠هـ[1].

ثم أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر؛ كان نصرانيًا، وكان طبيب الحاكم بأمر الله، ومن الخواص عنده، وكان متقدمًا في الدولة، وتوفي في أيام الحاكم،

(١) القفطي: ص١٠٦.

فاستطب بعده إسحاق بن إبراهيم بن نسطاس[1].

وعلي بن سليمان؛ وكان طبيبًا للعزيز بالله وولده الحاكم؛ وقد نقل بعض الكتب في الطب لأبقراط وجالينوس، كما ألَّف فيما بعد الطبيعة.

وأبو علي بن الهيثم؛ وأصله من البصرة، ثم انتقل إلى مصر في أيام الحاكم بأمر الله وأقام بها إلى آخر عمره. برع في الرياضيات والطبيعيات، وله مشاركة في الطب. وقد أتى مصر باستدعاء الحاكم لما بلغه أن له نظرية هامة في توزيع مياه النيل؛ ولكنه لما حضر وسافر إلى الشلال وخبر النيل هناك ودرسه أدرك خطأ نظريته، واعتذر للحاكم. ولكنه كان مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصةً في الطبيعيات والرياضيات، وكان لا يهمه المال والجاه بجانب ما يهمه العلم والوقوف على الحقيقة، قال في كتبه: «إني لم أزل منذ عهد الصبا مُرَوِّيًا في اعتقادات الناس المختلفة، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأي، فكنت متشككًا في جميعه، موقنًا بأن الحق واحد، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق، ووجَّهت رغبتي وحرصي إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون وتنقشع غيابات المتشكك المفتون» إلخ.

وقد ألَّف نحو مائتي كتاب في الرياضيات والطبيعة والفلسفة ظلَّت عماد الناس في الشرق والغرب، وخاصة كتاب «المناظر» -وما زال يؤلِّف ويلخص ويشرح في حركة دائبة مستمرة، وفي كل مرحلة من عمره يقيد أسماء ما ألَّف، ويقول: «وإن أطال الله لي في مدة الحياة، وفسح في العمر، صنفتُ وشرحتُ ولخَّصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد في نفسي، ويبعثني ويحثني على إخراجها إلى الوجود فكري». وظلَّ وفيًّا لهذا العهد حتى مات حول سنة ٤٣٠هـ بعد ما ملأ الدنيا تآليف

(١) طبقات الأطباء: ٢/ ٨٩.

في الهندسة والحساب والفلك والمساحة، ومنطق أرسطو، وكتابه في الشعر والنفس، وفي الطب، وفي البصر، ووقوع الإبصار به، والضوء، والبصريات، والمرايا المحرقة إلخ. يعكف على عمله هذا في قبّة على باب الجامع الأزهر[1].

وكان للمبشّر بن فاتك؛ وهو أمير من أمراء مصر في العهد الفاطمي، ولع بالعلوم الفلسفية يقتني كثيرًا من كتبها، ويتبحر فيها؛ ويستفيد ابن الهيثم من علمه في الهيئة والرياضة.

واشتهر من هذه الطائفة علي بن رضوان رئيس أطباء الحاكم، وهو مصري الأصل من الجيزة، وكان أبوه فرّانًا، ولاقى في تعلمه أهوالًا حتى برع في الطب، وصار له الذكر والسمعة العظيمة، والثراء الواسع. وقد قامت بسببه حركة فكرية نافعة تحركت بها الأفكار في مصر وبغداد؛ إذ دخل ابن رضوان المصري في مناظرة حادة مع ابن بطلان الطبيب النصراني البغدادي، وتبودلت بينهما الرسائل، «ولم يكن أحد منهما يؤلّف كتابًا، ولا يبتدع رأيًا إلا ويرد الآخر عليه» وكان ابن رضوان طويل اللسان يكثر التشنيع على من يخالفه، وتعدّت المناظرة من المسائل العلمية إلى التعيير بقبح الشكل. وكان ابن رضوان قبيح الشكل، فتناظروا أيضًا في أيهما خير أن يكون الطبيب جميلًا أوْ لا، ولما طالت المناظرات سافر ابن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره، وأقام بها ثلاث سنين، واستمرّت بينهما المناظرات. ويقول ابن أبي أصيبعة في المقارنة بينهما: كان ابن بطلان أعذب ألفاظًا، وأكثر ظرفًا، وأميز في الأدب وما يتعلق به، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها -وقد ألّف ابن رضوان كتبًا كثيرة في الطب والفلسفة.

وكانت في مصر أيضًا حركة في النحو، من أشهر رجالها أبو بكر الأدفوي تلميذ

---

(١) انظر: طبقات الأطباء: ٢/ ٩٠ وما بعدها.

أبي جعفر النحاس الذي تقدم ذكره، برع في علوم القرآن والنحو؛ له كتاب في علوم القرآن في مائة وعشرين مجلدًا مات سنة ٣٨٨هـ.

ثم ابن بابشاذ؛ أحد أئمة النحو والأعلام في فنون العربية وفصاحة اللسان. ورد العراق تاجرًا في اللؤلؤ، وأخذ عن علمائها ورجع مصر، واستخدم في ديوان الإنشاء والرسائل مراجعًا يراجع ما يخرج من الديوان من الإنشاء، ويصلح ما يراه من الخطأ في الهجاء والنحو واللغة، ثم تزهد، وقد ألَّف شرحًا على كتاب «الجُمل» للزَّجاجي، و«المحتسب في النحو»، وتعليق في النحو يقارب خمسة عشر مجلدًا. مات سنة ٤٦٩هـ.

ثم كانت الحركة الأدبية؛ وفي الحق أن الشعر في العهد الفاطمي في مصر كان أول شعر مصري قيم من عهد فتح العرب لمصر؛ إذ كان قبل ذلك ليس له من قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج؛ أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاولات أوَّلية، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد، ويرجع ذلك إلى أمور:

الأول: أن العصر الأول لفتح مصر كان عصر دهشة أعقبت الفتح، فلما استقرَّت الأمور وبدأ الشعر ينهض، تولَّى الحكم أتراك من مثل الطولونيين والإخشيديين، وليس لهم من الذوق العربي الراقي ما يستسيغون به الشعر؛ والشعر العربي بطبيعة موضوعاته التي كانت من مديح ونحوه لم يكن يزهر إلا على باب قصور الخلفاء والأمراء، فإن تذوقوه وشجعوه نما وازدهر، وإلا ضعف وانحدر؛ فلما جاء الفاطميون -وهم عرب لهم الذوق العربي، والثقافة العربية، وخاصةً في أول عهدهم، إذ كان فيهم أيضًا الذوق البدوي- نما الشعر على بابهم، ولما جاءوا مصر جاءوا بذوقهم وشعرائهم، وتتابعت الموجات.

والثاني: أن الدولة الفاطمية كان أساسها الدعوة والدعاية بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة، حتى قلَّ أن نرى لها مثيلًا في تنظيم دعوتها سِرًّا وجهرًا، والدقة في اختيار الأساليب المختلفة التي تناسب العامة والخاصة، والجاهل والعالم، والمتدين والملحد، والغبي والفيلسوف؛ فرأت بصائب نظرها أن الشعراء من أصلح الدعاة لمذهبهم؛ إذ هم يقومون في زمنهم مقام الجرائد السيارة في عصرنا، فاحتضن الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم وأمراؤهم الشعراء ينفحونهم بالمال الكثير، والعطاء الوفير، ليطلقوا ألسنتهم بالقول في مدحهم ومدح مذهبهم. وقد وضع ابن هانئ الأندلسي أول خطة لذلك وهو بالمغرب عندما اتصل بالمعزِّ فاتح مصر ومؤسس القاهرة، فمدحه بغرر المدائح وعيون الشعر، وبالغ المعزُّ في الإنعام عليه، ولم يكن هناك ممدوح أعز شاعره كما أعزَّ المعزُّ ابن هانئ؛ فلما أنشده بالقيروان قصيدته التي أولها:

هل من أعقَّة عالجٍ يَبْرِينُ   أم منهما بقرُ الحدوجِ العِينُ

أمر له بدست قيمته ستة آلاف دينار، فقال له: يا أمير المؤمنين! ما لي موضع يسع الدست إذا بسط. فأمر له ببناء قصر غرم عليه ستة آلاف دينار، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار. ولما بلغه خبر وفاته وهو بمصر تأسَّف عليه كثيرًا؛ وقال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدَّر لنا ذلك»[1].

وقد أسس ابن هانئ في شعره عقائد الإسماعيلية، وصاغها صياغة شعرية، وعلَّم الشعراء كيف يمدحون الخلفاء الفاطميين من ناحية عقائدهم، كما يمدحونهم من ناحية خلائقهم؛ فيقول مثلًا:

(١) ابن خلكان في ترجمة ابن هانئ.

أنــت الــوَرَى فــاعْمُر حيــاة الــورى ... باســـم مـــن الـــدعوة مـــشتقٌ(١)

ويقول:

قــد كــان يُنــذر بالوعيــد لطــول مــا ... أَصْـــغَى إليــك ويَعْلَــم التــأويلا(٢)

* * *

أهـــل النبـــوة والرســـالةِ والهُـــدى ... في البينـــات وســـادةٌ أطهـــار

والــوحي والتأويــل والتحليــل والتحـــ ... ــــريم لا خلـــف ولا إنكـــار

ويقول:

مــاذا تريــد مــن الكتــاب نواصــبٌ ... ولـــه ظهـــور دونهـــا وبطـــون

وهو بذلك يؤكِّد عقيدة الشيعة في أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وأن التأويل لا يعلمه إلا الله ورسوله وخلفاؤه المنصوبون من قبله، إمامًا بعد إمام إلى آخر الأئمة المعصومين، يعلِّم الماضي منهم من يأتي بعده، وسائر الناس يستفيدون علم التأويل منهم بقدر استعدادهم.

ويقول مؤيدًا لهذه التعاليم:

إذا كــان أمــنٌ يــشمل الأرض كلَّهــا ... فــلا بــدَّ فيهــا مــن دليــل مقــدَّم

ويقول:

---

(١) أي: أنت الناس فاعمر أعمارهم مجموعة، وأنت داع إلى الله يدعوهم إلى سبيل الهداية، فيؤسِّس بذلك نظرية الدعوة.

(٢) الضمير في «كان» يعود على السيف. يقول: كاد سيفك ينذر بالوعيد، ويعلم التأويل لطول مصاحبته إياك واستماعه لبيانك.

لـــولاك لم يكـــن التفكـــر واعظًـــا والعقـــل رُشـــدًا والقيـــاس دلـــيلا

لـو لم تكـن سَـكَنَ الـبلاد تضعـضعت وتزايلـــت أركانهـــا تـــزييلا

وهكذا يؤسِّس في شعره الدعوة، ونظرية الإمامة وعصمة الأئمة، وعلم الإمام بالحقائق، وأنه مظهر نور الله. فعلَّم الشعراء كيف يمدحون، وكيف يقولون[1].

فلحاجة الفاطميين للدعوة قرَّبوا الشعراء، فكثر الشعر وحسن وجاد، فرأينا شعراء ممتازين في هذا العصر لم يكن مثلهم في مصر؛ شعراء أتوا من المغرب مع المعز وبعده، وشعراء وافدون من العراق والشام واليمن، وشعراء من المصريين أنفسهم؛ وراج الشعر لكثرة الدوافع وقوتها، فنوع الشعر الغالب على الأدب العربي -وهو شعر المديح- إنما يكثر ويزدهر على باب القصور السخية. والفاطميون كانوا من أسخى الناس في هذا الباب. ثم هم أكثروا من الحفلات العامة. مما لم يكن له نظير في مصر لا قبلهم ولا بعدهم، وهذه الحفلات والأعياد كانت في غاية من الفخامة والضخامة؛ قد أقروا الأعياد التي كانت قبلهم، وزادوا عليها: فموسم رأس السنة، ويوم عاشوراء، ومولد النبي، ومولد عليٍّ، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد فاطمة، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وأول شعبان ونصفه، وغرَّة رمضان، وسماط رمضان، وليلة الختم، وعيد الفطر، وعيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وفتح الخليج، ويوم النيروز، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد، وخميس العدس إلخ. مما بقي أثر بعضه عند المصريين إلى اليوم.

وكان في كثير من هذه الأعياد، يركب الخليفة بزيِّه المفخم، وهيئته المعظَّمة، وتوزَّع الخلع والجوائز، وتمد الأسمطة، فتكون كل هذه المظاهر حافزة للشعراء على

(١) انظر: ديوان ابن هانئ الذي نشره الدكتور زاهد علي.

أن يقولوا ويكثروا ويجيدوا في هذا الباب من القول الذي يعده الفاطميون دعاية لهم لا بدَّ منها.

روى المقريزي عن الشريف أبي عبد الله الجواني، أن الخليفة الآمر بأحكام الله بنى منظرة من خشب مدهونة، فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحَبَش، وصوَّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر في المدح، وكتب ذلك عند رأس كل شاعر، وبجانب صورة كل منهم رفٌّ لطيف مذهَّب. فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار، أمر أن يحطَّ على كل رفٍّ صُرَّةَ مختومة فيها خمسون دينارًا، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده، ففعلوا ذلك، وأخذوا صررهم، وكانوا عدة شعراء[1].

وقد أسَّس هذه الخطة -خطة الاحتفاء بسماع الشعر ورعايته والمكافأة العظيمة عليه- الخليفة المعز ووزيره يعقوب بن كلِّس، ثم صارت تقليدًا فاطميًّا متَّبعًا بالمعزّ أسَّس له ابن هانئ منهج الشعراء في المديح؛ ويعقوب بن كلِّس قرَّب الشعراء وشجَّعهم وأغناهم، وكان من أولهم في ذلك الشاعر أبو حامد الأنطاكي المعروف بأبي الرَّقَعْمَق، وأكثر شعره وقفٌ على مدح المعزِّ والعزيز والحاكم بأمر الله، وجوهر القائد، وخاصةً الوزير ابن كلِّس من مثل قوله فيه:

كل يوم له على نُوَب الدهـ ـر وكر الخطوب بالبذل غاره

ذو يد شأنها الفرار من البخـ ـلِ وفي حومة الندى كرَّاره

هي فلت عن العزيز عداه بالعطايا وكثرت أنصاره

هكذا كل فاضل يده تمـ ـسي وتضحى نفَّاعة ضراره

---

(١) خطط المقريزي: ١/ ٤٨٦.

فاستجزْهُ فليس يأمن إلا ... من تفيَّا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأيته مطرقًا يُعـ ... ـمل فيما يريدُه أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئًا ... في ضمير الغيوب إلا آثاره
لا ولا موضعًا من الأرض إلا ... كان بالرأي مدركًا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه ... خوفَه من زمانه وحذاره

وقد أفرد العماد الأصفهاني في كتابه «خريدة القصر وجريدة العصر» جزءًا خاصًّا لشعراء مصر، بلغ عددهم نحو المائة، ترجم لكل منهم وذكر شيئًا من شعره[1].

ويمكننا أن نقسم الشعر المصري الفاطمي أقسامًا ثلاثة: قسم في المديح وهو أكبر الأقسام كعادة الشعر العربي، وكما رأيت في شعر أبي الرقَعْمَق، ويمتاز عما قبله من شعر مصر بالجزالة والقوة للأسباب التي ذكرناها. ومن أشهر هؤلاء المهذب بن الزبير؛ وكان أكثر مديحه في الصالح بن رُزِّيك، ومن أشهر قصائده فيه قصيدة نونية يمدحه بها بعد انتصار أسطول مصر على أسطول الروم، مطلعها:

أعلمت حين تجاور الحيَّان ... أن القلوب مواقد النيران

ومثل المهذَّب المَوْصِلي، وعُمارة اليمني.

ويصح أن نلاحظ أن هذا الشعر الذي قيل في مديح الفاطميين شعرٌ فرِح مغتبط، إذ كان الشيعة لأول أمرهم قد نجحوا في تأسيس دولة ضخمة، وتبوءوا فيها كرسي الخلافة بعد أن طال أمدهم في اضطهاد وتعذيب على يد الأمويين والعباسيين،

(١) وهذا الجزء هو الجزء الثاني، ومنه نسخة فوتوغرافية في دار الكتب.

فكان شعر شعرائهم حزينًا آسفًا كشعر السيد الحِمْيري، والكميت ودِعْبل الخزاعي.

ثم شعر تعليمي في الدعوة، وقد بدأه ابن هانئ الأندلسي في بعض شعره، وقد عرضنا قبل نماذج منه، وبلغ قمته المؤيد الشيرازي داعي الدعاة، فأكثر من الشعر في هذا الباب وأفاض، وله ديوان في ذلك؛ منه في تأييد علم الباطن:

ورب معنى ضمَّه كلام ... كمثل نور ضمَّه ظلام

باق بقاء الحَبِّ في السنابِلِ ... في معقل من أحرز المعاقل

وإنما باب المعاني مُقْفَل ... وأكثر الأنام عنه غُفَّل

مفتاحه أضحى بأيدي حزنه ... بهم إلهي علمه قد خزنه

كما يلوذ الخلقُ طرًّا بهمُ ... خصوا لهذا العلم من ربهمُو

فما أبو حنيفةٍ والشافعي ... -حيث هُم قد نفقوا- بنافع

أولئك الأبرار آل المصطفى ... ومن بهم مَرْوَةُ عزَّت والصَّفا

هم البدور والنجوم اللُّمَّعُ ... وللهدى وللعلوم المنبع

هم الثقاتُ والنفاة للشُّبَه ... والمنقذون الناس من كل عَمَه

لهم سمعنا ولهم أطعنا ... فبدَّلونا بعد خوفٍ أمنا

فما علينا مشكلٌ بمشكل ... بهم كُفِينا كل خط معضِل

وأرشدونا سبل الصواب ... وعلَّمونا علم ذا الكتاب

مبرَّأ من هجنه التناقض ... مسلَّمًا من خوض كل خائض

وهكذا كل ديوانه في الدعوة وما إليها[1].

(١) انظر ديوانه مخطوطًا في مكتبة جامعة فؤاد.

ثم شعرٍ هو أرقى أنواع الشعر وأصدقه، ينبع من مشاعر الشاعر، ويتدفَّق في رقَّة وسلاسة، وكان على رأس الشعراء من هذا النوع شاعران فاطميان: تميم بن المعز، والعَقِيلي.

فأما تميم، فهو ابن الخليفة المعز فاتح مصر، ولم يل الخلافة لأن المعزَّ جعل ولاية عهده لابنه العزيز نزار دون تميم، فحُرم الخلافة، ولكنه تبوأ عرش الأدب فكان شاعرًا ماهرًا لطيفًا ظريفًا، يشعر بخلجات نفسه، ونبضات قلبه، ولم تر مصر شاعرًا من هذا القبيل قبله مثله، يصف حياته اللاهية من حبه وعشقه وليالي غرامه ونحو ذلك في قولٍ عذب؛ وفي أعماقه شعورٌ بالحزن، إما لطبيعة مزاجه ورقَّة جسمه، أو لخروج الخلافة من يده وهو يرى أنه أَوْلى بالفضل، أو لأنه عذَّبه الحبُّ فأضناه، أو لكل ذلك مجتمعًا. فمن قوله:

أما والذي لا يملك الأمرَ غيرهُ ... ومن هو بالسرِّ المكتَّم أعلم

لئن كان كتمان المصائب مؤلمًا ... لإعلانها عندي أشد وآلم

وبي كل ما يُبكي العيونَ أقلُّه ... وإن كنت منه دائمًا أتبسم

وتميم بن المعز أشبه شيء بابن المعتز في قرابة الكنية، والنشأة في بيت الملك، وقوة الشاعرية، وسوء الحظ في دنيا المناصب، وإن تخالفا في أن ابن المعتز سُني عباسي يدعو للعباسيين ويرد على الشيعة. فيرد عليه ابن المعز في مثل قوله وعلى رويِّ قصيدته. يقول ابن المعتز في الإشادة بالعباسيين وردِّ دعوة الشيعة قصيدة مطلعها:

أي رسم لآل هند ودار ... دَرَسا غير ملعب ومنار

يقول فيها:

هاشمي إذا نسبت ومخصو ... ص ببيت من هاشم، غير عار

أخــزن الغــيظ في قلــوب الأعــادي ... وأحِــلَّ الجَبَّـــار دار الـــصَّغار
أنـــا جـــيش إذا غـــدوت وحيـــدًا ... ووحيـــد في الجحفـــل الجـــرَّار

...إلخ.

فيرد تميمُ بن المعز بقصيدته:

يـــا بنـــي هاشـــم ولـــسنا ســـواء ... في صِـــغار مـــن العـــلا وكبـــار
إن نكـــن نتمـــي لجَـــدٌ فإنـــا ... قـــد ســـبقناكمو لكـــل فخَـــار
لـــيس عباسُـــكم كمثـــل عـــليٍّ ... هـــل تقـــاس النجـــوم بـــالأقمار؟!

...إلخ.

ولكن دعنا من هذا، فمزيَّة تميم الكبرى في رقة شعره، وصدق شعوره وسلاسته، فكان في ذلك أستاذ البهاء زهير بعدَه، كقوله:

يـــا دهـــر مـــا أقـــساك مـــن متلـــوِّن ... في حالتيـــك ومـــا أقلـــك منـــصفا
أتـــروح للـــنكس الجهـــول ممهِّـــدا ... وعـــلى اللبيـــب الحـــرِّ ســـيفًا مرهفَـــا
فـــإذا صـــفوت كـــدرتَ، شـــيمة باخـــل ... وإذا وفيـــت نقـــضت أســـباب الوفـــا
لا أرتـــضيك وإن صـــفوت لأننـــي ... أدري بأنـــك لا تـــدوم عـــلى الـــصفا
زمـــن إذا أعطـــى اســـترد عطـــاءه ... وإذا اســـتقر بـــدا لـــه فتحرَّفـــا
مـــا قـــام خـــيرك يـــا زمـــان بـــشرِّه ... أولى بنـــا مـــا قـــلَّ منـــك ومـــا كفـــى

وقوله:

قالـــت وقـــد نالهـــا للبـــين أوجعُـــه ... والبـــين صـــعب عـــلى الأحبـــاب موقعـــه

اجعل يديك على قلبي فقد ضعفت ... قواه عن حمل ما فيه وأضلُعه

كأنني يوم ولّت حسرة وأسى ... غريق بحر يرى الشاطئ ويُمنَعه

وله الأوزان الشعرية الظريفة كقوله:

دم العشاق مطلول ... ودَين الحب ممطول

وسيف اللحظ مسلول ... ومُبْدي الحب معذول

وإن لم يُصغِ لِلائمْ

وأحسورَ ساحر الطرْفِ ... يفوق جوامع الوصف

مليح الدَّل والظرف ... جنت ألحاظه حتفي

فمن يُعدي على الظالم

يعنّفني على حبّي ... ويهجرني بلا ذنب

كأني لست بالصب ... لقهوة ريقه العذب

أما في الحب من راحم؟

...إلخ.

وقد مات سنة ٣٧٤هـ في خلافة أخيه، ولم يعمر طويلًا؛ إذ كان عمره يوم وفاته نحوًا من سبع وثلاثين سنة، وهذه سُنَّة القلب المحترق[١].

وأما العَقِيلي؛ فهو أبو الحسن علي بن الحسن بن حَيْدرة العقيلي، كان في المائة الخامسة، وكان من الأشراف، وكان له متنزهات بجزيرة الفسطاط، ولم يغنِّ لخليفة أو أمير، بل غنَّى لنفسه في حبِّه ومتنزهاته؛ وكان يعد من أئمة المدرسة التي تعنى بالتشبيه وتجيده، أمثال ذي الرمة أولًا، وابن المعتز أخيرًا؛ ثم سلك مسلك أبي نواس في الخمر وتوليد المعاني منها، وأولع بالطبيعة الجميلة يستجليها ويستمتع بها، كقوله:

الروض في ديباجة خضراء ... والجوُّ في فَرَجيَّة دكناء
والأرض قد نظم الربيع لجيدها ... عِقْدًا من الصفراء والحمراء
والراح يشر في مُذَاب عقيقها ... دُرَرَ الفواقع جوهريُّ الماء
فاقصد رضا رضوانها بالشرب إن ... أحببت سكنى جنة السرَّاء

وقوله في وصف صديق:

ظلَّلني بظلِّه الظَّليلِ ... أخ نَداه واضح السبيلِ
يسير في المجد بلا دليل ... مهذَّب الجملة والتفصيل
أخلاقه تَنضح بالجميل ... كأنه عافية العليل

* * *

لأحْسنُ من مصافحة الصِّفاح ... ومن وقع الرماح على الرماح

---

(١) له ديوان شعر مخطوط بمكتبة الجامعة.

بقـاع تـرقص الأمـواج فيهـا | عـلى الـنغمات مـن زمـي الرمـاح
وأغـصانٌ يـذهِّبها بَهـار | وغيطـان يفضِّـضها أقـاح
وإن جـنح الـشباب إلى التـصابي | فخـلِّ عنانـه طـوعَ الجـماح
فـصبح العـيش سـوف يعـود لـيلًا | إذا مـا الليـل نغـص بالـصباح[1]
أتطمـع بعـد شـيبك في سرور | محـالٌ أن تطـير بـلا جنـاح[2]

ثم ما بقي لنا من النثر الفني الفاطمي ولو كان قليلًا، كبعض الكتب الرسمية التي ذكرها القلقشندي في «صبح الأعشى»، ورسالة ابن القارح لأبي العلاء -وقد عاش ابن القارح في زمن الحاكم- وردَّ عليها أبو العلاء بـ«رسالة الغفران»، وكرسالة داعي الدعاة إلى أبي العلاء، وجداله معه في ذبح الحيوان؛ إلى غير ذلك من رسائل منثورة هنا وهناك؛ كل هذا على قِلَّته يدل على تقدم النثر الفني، وميله إلى الزينة من سجع وبديع واقتباس، مما هو ظل لحياة الترف في قصور الخلفاء، كما يدل على تأثرٍ بسعة الثقافة التي عظمت في هذا العصر.

(١) يريد: إذا نزل الشيب بالرأس.

(٢) انظر مجموعة من شعره في كتاب المغرب ص٥٢ وما بعدها.

الباب الثاني
العراق وجنوبي فارس

ظلّت هذه البلاد محكومة بالخلفاء اسمًا، وبسلطة الأتراك فعلًا، من عهد المتوكل إلى أن جاءت البويهية الفارسية فبسطت نفوذها على جنوبي فارس والعراق من سنة ٣٢١هـ إلى سنة ٤٤٧هـ؛ ولما تغلبوا على بغداد لم يكن للخليفة العباسي معهم إلا الاسم، والدعاء له على المنابر، وكتابة اسمه على سكة الدراهم والدنانير. وأما جباية الأموال وتجييش الجيوش وأمور الدولة كلها ففي أيديهم، قد جعلوا للخليفة مرتبًا ثم تصرفوا كل مالية الدولة، وكان لقبهم «أمير الأمراء» لقّبهم به الخلفاء. وقد كان البويهيون شيعة؛ وقد فكر معز الدولة البويهي عندما فتح بغداد أن يعزل الخليفة وهو سني ويقيم مكانه أحد الأئمة العلويين، كما فعل الفاطميون، وكان ذلك هينًا عليه، ولكن نصحه بعض خاصته ألا يفعل؛ وقال: «ليس هذا برأي فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله قتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه، فأعرض عن رأيه، وأقام المطيع لله خليفة بدل المستكفي المخلوع».

وقد كانوا فرسًا متشيّعين يقولون: إنهم من نسل ملوك فارس، وقد تقسّموا العراق وجنوبي فارس فيما بينهم، وامتدّ نفوذ بعضهم أحيانًا، وانكمش نفوذ بعضهم، فمنهم من حكم العراق والأهواز وكِرْمَان، ومنهم من حكم كِرْمَان وحدها، ومنهم من حكم فارس وحدها، ومنهم من حكم الرَّي وهَمَذان وأصفهان، ومنهم من مد سلطانه على ذلك جميعًا كعضد الدولة، وكان بين بعضهم وبعض خصومات ومنازعات ليس هنا موضع شرحها.

إنما نستطيع أن نقول إنهم مع فارسيّتهم شجّعوا الأدب العربي، واللسان العربي، والعلوم العربية، وكان ممّن نبغ من العلماء والأدباء والفلاسفة في عهدهم من يُعَد بحق فخر المملكة الإسلامية في العصور المختلفة.

وقد كانت هناك مدن كثيرة في هذا الإقليم أثناء هذا العهد وقبله تميزت بقوة الحركات العلمية والأدبية مثل بغداد والبصرة والكوفة في العراق، والري وأصبهان في فارس.

وقد زار المقدسي هذه البلاد كلها في العهد البويهي، وملخّص ما قال من الناحية العلمية: «إن إقليم العراق إقليم الظرفاء، ومنبع العلماء، لطيف الماء، عجيب الهواء، مختار الخلفاء، أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء، وسفيان سيد القرّاء، ومنه كان أبو عبيدة والفراء، وحمزة والكسائي، وكل فقيه ومقرئ وأديب، وسريّ وحكيم وداه وزاهد ونجيب، وظريف ولبيب -أليس به البصرة التي قويلت بالدنيا، وبغداد الممدوحة في الورى، والكوفة الجليلة وسامَرّا[1].

«والكوفة قصبة جليلة حسنة البناء جليلة الأسواق كثيرة الخيرات... وهو بلد مختلّ قد خرب أطرافه، وكان نظير بغداد[2].

«والبصرة قصبة سَرِية... والبلد أعجب إليّ من بغداد لرفعتها، وكثرة الصالحين بها. وكنت بمجلس جمع فقهاء بغداد ومشايخها، فتذاكروا بغداد والبصرة فتفرقوا على أنه إذا جمعت عمارات بغداد وأُنِدر خراجها لم تكن أكبر من البصرة[3].

---

(١) أحسن التقاسيم: ١١٣.

(٢) ص١١٧.

(٣) ص١١٨.

«وبغداد -لأهلها- الخصائص والظرافة، والقرائح واللطافة، هواء رقيق، وعلم دقيق، كل جيد بها، وكل حسن فيها، وكل حاذق منها، وكل قلب إليها، وكل حرب عليها، وهي أشهر من أن توصف، وأحسن من أن تنعت، وأعلى من أن تمدح[1].

ولكنه في موضع آخر قال: «واعلم أن بغداد كانت جليلة في القديم؛ وقد تداعت الآن للخراب، واختلّت وذهب بهاؤها، ولم أستطبها، ولا أعجبت بها، وإن مدحناها فللمتعارف؛ وفسطاط مصر اليوم كبغداد، ولا أعلم في الإسلام بلدًا أجلّ منه»[2].

والعراق «كثيرة الفقهاء والقرّاء والأدباء والأئمّة والملوك، بخاصة بغداد والبصرة... وبه مجوس كثيرة، وذمّته نصارى ويهود... وقد حصل به عدة من المذاهب، والغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة، وبه مالكية وأشعرية ومعتزلة ونَجّارية، وبالكوفة الشيعة إلا الكُنَاسة فإنها سنّة... وبالبصرة مجالس وعوام السَّالمية، وهم قوم يدَّعون الكلام والزهد -وسالم كان غلام سهل بن عبد الله التستري الصوفي-... وأكثر أهل البصرة قَدرية وشيعة، وثم حنابلة، وببغداد غالية يفرطون في حب معاوية، ومشبّهة... والقراءات السبع مستعملة في العراق... ولغاتهم مختلفة أصحها الكوفية لقربهم من البادية، وبعدهم عن النبط، ثم هي بعد ذلك خشنة وفاسدة بخاصة في بغداد. وأما البطائح فنبط لا لسان ولا عقل[3].

«وتقع عصبيات وحشة بالبصرة بين الرَّبَعيين وهم شيعة، وبين السعديين وهم سنة، ويدخل فيها أهل الرساتيق، وقلّ بلد إلاّ وبه عصبيات على غير المذاهب».

---

(١) ص١١٩.

(٢) ص٣٦.

(٣) ص١١٨.

«وأما القسم من إيران الذي كان يحكمه البويهيون فقسمه الشمالي كان يسمّى بلاد الجبال، وأهم مدنه أربع: كرمنشاه -وكانت تسمى في ذلك العهد قِرْمَسِين- والريّ، وهمذان، وأصفهان -وسمّي هذا الإقليم في العهد السلجوقي بالعراق العجمي- وكانت عاصمة هذا الإقليم في العهد البويهي هي «الري»؛ قال الإصطخري: «و«الريّ» مدينة ليس بعد بغداد في المشرق أعمر منها». وقال الأصمعي: «الريّ عروس الدنيا وإليه متجر الناس، وهو أحد بلدان الأرض»، والنسبة إليها رازي. وقد خرّجت كثيرًا من العلماء المعروفين بهذه النسبة كما سيجيء، وموقعها على بعد أميال من طهران، ومحلها الآن خرائب، ولما وصف المقدسي هذا الإقليم في العهد البويهي قال: «إن به الرَّي الجليلة، وهمذان، والكورة النفسية أصبهان»[1].

«فأما الريّ فإنها كورة نزيهة كثيرة المياه، جليلة القرى، حسنة الفواكه واسعة الأرض، خطيرة الرساتيق[2]... علماء سراة، وعوام دهاة، ونسوان مدبّرات، لهم جمال وعقل وآيين. وبه مجالس ومدارس، وقرائح وصنائع وخصائص، لا يخلو المذكّر من فقه، ولا الرئيس من علم، ولا المحتسب من صيت، ولا الخطيب من أدب، هو أحد مفاخر الإسلام، وأمهات البلدان، به مشايخ وأجلّة، وقرّاء وأئمّة وزهاد وغزاة... وأئمّة الجوامع فيها مختلفة، يوم للحنفيين، ويوم للشفعويين[3].

«وأما همذان فهي إقليم كبير حسن قديم... والريّ أطيب وآهل وأعمر منها، قد انجلى أهلها، وقلّ العلماء بها، وأذهبت الريّ دولتها.

---

(١) ص٣٨٤.

(٢) ص٣٨٥.

(٣) ص٣٩١.

وأما أصفهان، فأخذت بحظّ من فارس، وحظّ من الجبال، وقصبتها «اليهودية» وهي كبيرة عامرة آهلة كثيرة الخيرات، أهل سنّة وجماعة، وأدب وبلاغة، كما أخرجت من مقرئ وأديب، وفقيه ولبيب[١].

«ومذاهب هذا الإقليم مختلفة؛ أما بالريّ فالغلبة للحنفيين، وبها حنابلة كثيرون لهم جلبة، والعوام قد تابعوا الفقهاء في خلق القرآن، وأهل «قُمّ» شيعة غالية... وهمذان وأجنادها أصحاب حديث إلا الدينَوَر، فإن بها جلبة لمذهب سفيان الثوري، والإمامة في الجامع مثنى -يوم لمذهب ويوم لمذهب- وعلى ذلك كان أهل أصفهان في القديم[٢].

ويقع بالريّ عصبيات في خلق القرآن[٣]، وفي أهل أصفهان بله وغلو في معاوية[٤].

وقد اشتهر من بلاد الجبل في العلم والأدب «دينَور» التي ينسب إليها ابن قتيبة الدينوري، وأبو حنيفة الدينوري، وغيرهما من فحول العلماء والأدباء.

وإلى الجنوب من إقليم الجبال كان إقليم «فارس»، وكان اسمًا لإقليم خاص، ثم أطلق على إيران كلها. وقد اشتهر من هذا الإقليم في العلم والأدب إصْطخر، وسِيراف، وشيراز، وأرّجان، وشِعب بَوّان، وشهرستان؛ وقد حازت شيراز مركزًا ممتازًا في العهد البويهي، وخاصةً في عهد عضد الدولة، وكانت هي قصبة إقليم فارس ينزل بها ملوك البويهيين. قال المقدسي: «وهذا الإقليم -إقليم فارس- العمل

(١) ص٣٨٩.
(٢) ص٣٩٥.
(٣) ص٣٩٦.
(٤) ص٣٩٩.

فيه على مذهب أصحاب الحديث، وأصحاب أبي حنيفة كثيرون، وللداوودية -أهل الظاهر- دروس ومجالس وغلبة، ويتقلّدون القضاء والأعمال[١]. والصوفية بشيراز كثيرون، وكما يُرفع بالمشرق العلماء تُرفع هنا الكتبة»[٢].

نعود إلى وصف الحركة العلمية في العراق، ثم في الجزء الجنوبي من بلاد الفرس. فالعراق من عهد المتوكل إلى آخر الدولة البويهية لم تزل لها الصدارة في العلم والأدب والفلسفة.

ويدلّ ما جمعه الخطيب البغدادي من تراجم علماء بغداد على ثروة واسعة في العلم والعلماء من جميع الفروع كالتفسير والحديث والفقه والشعر والأدب.

نعم إن المتوكل نصر أهل الحديث على المعتزلة واضطهدهم، وكان في هذا خسارة كبيرة على الحركة الفكرية؛ ولكن مع ذلك ظل الجدل في علم الكلام قويًّا.

فقد نبغ أبو عليّ الجُبّائي (٢٣٥هـ - ٣٠٣هـ)، وكان إمام المعتزلة في بغداد، وتتلمذ له أبو الحسن الأشعري (٢٧٠هـ - ٣٣٠هـ)، وكان مولده بالبصرة، وإنتقل إلى بغداد، وأخذ مذهب الاعتزال على الجبائي، ثم خرج على الاعتزال وحاربه وألف في ذلك الكتب الكثيرة، وخالف المعتزلة في كثير من أصولهم لقولهم بالاختيار المطلق ووجوب العدل على الله، وأن القرآن مخلوق، وكوّن مذهبًا له دعا إليه، وناصر مذهبه جماعةٌ من أكبر العلماء من أشهرهم الباقلاني، وابن فورَك، والإسفرائيني، والقشيري، وإمام الحرمين الجُوَيني، ثم الغزالي فأبو حامد الإسفرائيني كان يحضر إليه أكثر من ثلاثمائة فقيه، وانتهت إليه الرياسة في بغداد، وكان شافعيًّا كأبي الحسن

(١) ص٤٣٩.

(٢) ص٤٤٠.

الأشعري، وما زال يدرّس ببغداد من سنة ٣٧٠هـ إلى وفاته سنة ٤٠٦هـ.

والباقلاني كذلك كان من أنصار الأشعري في بغداد، وصنّف التصانيف الكثيرة في علم الكلام، وكان موصوفًا بالإطناب وقوة الجدل، مات سنة ٤٠٣هـ إلخ إلخ.

واشتدّ الجدل بين الأشعرية والمعتزلة، وإن خَفَتَ بعض الشيء صوت المعتزلة لقوة المحدّثين، ونصرة ذوي السلطان لهم.

واستمر المعتزلة في العراق يعلّمون ويدرّسون ويدعون؛ وقد اشتهر منهم أئمّة عظماء كأبي علي الجبائي الذي مر ذكره، ثم تلميذه في الاعتزال محمد بن عمر الصَّيْمري، ثم قاضي القضاة عبد الجبار، كان أشعريًّا ثم تحوّل إلى الاعتزال ونبغ فيه؛ قالوا: «وهو أول من فتق علم الكلام ونشر بروده، ووضع فيه الكتب الجليلة التي بلغت المشرق والمغرب، وضمّنها من دقيق الكلام وجليله ما لم يتفق لأحد مثله؛ وطال عمره مواظبًا على التدريس والإملاء -ببغداد- حتى طبق الأرض بكتبه وأصحابه، وبَعُد صوته؛ وإليه انتهت الرياسة في المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها غير مدافَع، وصار الاعتماد على كتبه ومسائله؛ واستدعاه الصاحب بن عباد إلى الريّ سنة ٣٦٠هـ فبقي فيها مواظبًا على التدريس إلى أن توفي سنة ٤١٥هـ سنة ٤١٦هـ»[1]. وهو الذي يلقبه المعتزلة بقاضي القضاة.

وهكذا ظلت حركة الاعتزال في العراق يناهضها الأشاعرة وغيرهم، ويؤسّسون بذلك علم الكلام ويوسّعونه.

كما نمت الحركة الفقهية في العراق نموًّا كبيرًا، وظهر كثير من المجتهدين وكبار أتباع المذاهب المختلفة.

---

(١) المنية والأمل.

فكان من المجتهدين داود الظاهري الأصفهاني الأصل البغدادي الدار. وقد أسّس مذهبًا عماده إنكار القياس، وأن في الكتاب والسنّة من العمومات ما يفي بمعرفة الواجبات والمحرمات، وتقديم ظواهر آيات القرآن والحديث على التعليل العقلي للأحكام. وقد كثر أتباع هذا المذهب في العراق وفارس والأندلس. وقد انقرضوا بعد المائة الخامسة؛ وقد مات داود صاحب المذهب سنة ٢٧٠هـ ببغداد، ونشر مذهبه بعده ابنه محمد المتوفى سنة ٢٩٧هـ.

ثم من أشهر الأئمّة المجتهدين محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ، ومن أعلم الناس بفقه المذاهب المختلفة، وألّف في اختلاف الفقهاء، وكان من أكثر العلماء تأليفًا، وكان مجتهدًا في مذهبه لم يقلّد أحدًا، توفي سنة ٣١٠هـ ببغداد. وكان له أتباع على مذهبه انقطعوا بعد المائة الرابعة.

وقد نبغ في هذا العصر كثير من علماء المذاهب المختلفة كذلك.

فاشتهر من الحنفية في العراق أبو الحسن عبيد الله الكرخي رئيس الحنفية في العراق في عصره، توفّي سنة ٣٤٠هـ، وقد أصابه الفالج، فكتب أصحابه إلى سيف الدولة الحمداني يستمنحونه ما ينفق عليه؛ فلما علم الكرخي بذلك بكى، وقال: اللهّم لا تجعل رزقي إلا من حيث عوّدتني، ومات قبل أن تصل إليه صلة سيف الدولة.

وكان من أكبر تلاميذ الكرخي هذا أبو بكر الجَصّاص البغدادي رأس المذهب بعد الكرخي، وألّف الكتب الكثيرة على مذهب أبي حنيفة، مات سنة ٣٧٠هـ. وقد وصل إلينا من تآليفه كتابه العظيم المطبوع، «أحكام القرآن».

ثم أبو الحسين القُدُوري رئيس الحنفية في العراق في زمنه؛ وقد ألّف كتبًا وصل

إلينا بعضها منها المختصر، وكان يناظر الإسفرائيني الفقيه الشافعي المشهور، مات سنة ٤٢٨هـ.

واشتهر من فقهاء المالكية العراقيين أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حماد، تفقّه عليه أهل العراق من المالكية، وألّف الكتب الكثيرة في الفقه المالكي وعلوم القرآن وكان من نظراء المبرّد في النحو، وولي قضاء بغداد، وعنه انتشر مذهب مالك في العراق، وأقام على القضاء نيفًا وخمسين سنة، «وكان بيت آل حماد أشهر بيت في العراق لكثرة رجاله المشهورين بالعلم والثراء، أئمّة الفقه ومشيخة الحديث، رؤساء نبهاء أصحاب سنة وهدى ودين، روى عنهم علماء انتشروا في أقطار الأرض، فانتشر ذكرهم في المشرق والمغرب، وبقي العلم في بيتهم نحو مائة عام»، مات إسماعيل بن حماد هذا سنة ٢٨٢هـ.

ثم أبو الحسن علي بن أحمد البغدادي المشهور بابن القصار، كتب كتاب مسائل الخلاف المشهور عند المالكية، وقد تولّى أيضًا قضاء بغداد، ومات سنة ٣٩٨هـ.

واشتهر من رجال الشافعية، أبو علي الكرابيسي البغدادي، رئيس الشافعية ببغداد، المتوفى سنة ٢٤٥هـ؛ وأبو علي الزعفراني البغدادي المتوفّى سنة ٢٦٠هـ، وأبو علي الحسن بن القاسم الطبري البغدادي، له كتاب المحرّر في النظر، وهو من أوائل الكتب في الخلاف بين الفقهاء، وله كتاب الإفصاح في الفقه، وكتاب في الأصول، وكتاب في الجدل، توفّي سنة ٣٠٥هـ.

ثم أحمد بن عمر بن سريج القاضي بشيراز ثم ببغداد، أحد عظماء الشافعية ألّف نحو أربعمائة كتاب، توفّي سنة ٣٠٦هـ.

وأبو إسحاق المروزي إمام عصره في العراق بعد ابن سريج، أقام بالعراق دهرًا

طويلًا ينشر مذهب الشافعي، توفّي سنة ٣٤٠هـ.

وأبو الحسن علي بن عمر البغدادي الدارقطني، المحدِّث الكبير، وكان فقيهًا شافعيًّا، عارفًا باختلاف الفقهاء، رحل إلى مصر، ونزل ضيفًا على ابن حِنْزابة وزير كافور الإخشيدي، ثم عاد إلى بغداد، وألف كتبًا كثيرة، ومات ببغداد سنة ٣٨٥هـ ونسبته إلى دار قطن محلة ببغداد.

ثم أبو الحسن الماوردي علي بن محمد بن حبيب البصري من أكبر فقهاء الشافعية، تولَّى القضاء في بلدان كثيرة، واستوطن بغداد؛ وألّف «الحاوي» وهو من أهم الكتب في الفقه الشافعي، وله الكتاب المشهور المفيد كتاب «الأحكام السلطانية» شرح فيه مناصب الدولة من الناحية الدينية كالإمامة وشروطها، والوزارة وأقسامها، والقضاء والحسبة وولاية الخراج، إلى آخره؛ وكان عمدة كل من تعرّض لهذا الموضوع من بعده، وله كتاب آخر في قانون الوزارة وسياسة الملك.

وله كتاب «أدب الدنيا والدين» في الأخلاق على الأصول الدينية لا كتهذيب الأخلاق لمسكويه، فإنه كتاب أخلاق على الأصول الفلسفية.

مات ببغداد سنة ٤٥٠هـ.

وكان للحنابلة سلطان كبير في العراق، واشتهر من علمائهم عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل، روى عن أبيه المسند والتفسير توفّي سنة ٢٩٠هـ.

وأبو بكر أحمد بن هانئ الطائي البغدادي أحد الأعلام في الفقه على مذهب ابن حنبل، مات بعد السبعين ومائتين.

وأبو إسحاق إبراهيم الحربي إمام كبير في الحديث مات سنة ٢٨٥هـ.

وأبو بكر عبد الله بن داود الأزدي السجستاني من أكابر حفّاظ الحديث ببغداد، وانتهت إليه رياسة الحنابلة بها، مات سنة ٣١٦هـ.

وأبو القاسم عمر بن الحسين الخِرَقي صاحب المختصر في فقه الحنابلة، خرج من بغداد لما ظهر بها سبّ السلف، وتوفّي سنة ٣٣٤هـ.

وقد أتعب الحنابلة الحكومات المتعاقبة أكثر من غيرهم من أهل المذاهب الأخرى لشدّة عصبيّتهم والميل إلى تنفيذ آرائهم بالقوة، من إراقة الخمور ومحاربة المنكرات، والتعدّي على خصومهم من أهل المذاهب، وصبرهم على ما يلقون من محن تقليدًا لأستاذهم الأكبر أحمد بن حنبل.

وفي هذا العصر نما في العراق التصوّف، والدعوة إلى الاهتمام بباطن النفس لا بالظواهر، وحقيقة الشريعة لا مجرّد أعمال الجوارح، ورياضة النفس عن طريق الزهد والعبادة، والوصول إلى المعرفة عن طريق الوحي والإلهام، وإدراك العالم العلوي بالذوق والشعور، لا بما يدركه العقل بالمنطق والتجارب والقياس. وقد ظهر التصوّف في العراق في القرن الثاني، واشتهر من أعلامه رابعة العدوية المتوفاة سنة ١٣٥هـ، وهي القائلة: استغفارنا يحتاج إلى استغفار، والقائلة: إلهي أتحرق بالنار قلبًا يحبك؟!

ثم إبراهيم بن أدهم (١٦٢هـ)؛ وشقيق البلخي (١٩٥هـ)؛ ومعروف الكرخي (٢٠٠هـ)، وهو القائل: التصوّف الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الناس؛ ثم بشر الحافي (٢٢٦هـ)، وهو القائل للمحدّثين: أدّوا زكاة هذا الحديث، قالوا: وما زكاته؟ قال: إن تعملوا بخمسة أحاديث من كل مائتين.

وفي أواسط القرن الثالث تفلسف التصوّف، واستمدّ من الفلسفة اليونانية

والفلسفة الهندية، فظهر بالعراق الحارث المحاسبي وهو بصري الأصل، وأستاذ أكثر البغداديين، ومفلسف التصوف، ألف كتبًا كثيرة؛ وكان يقول: خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم، ولا دنياهم عن آخرتهم. وكانت تآليفه من الأصول التي اعتمد عليها الغزالي في كتبه، توفّي سنة ٢٤٣هـ.

ثم سهل بن عبد الله التستري البصري المتوفّى سنة ٢٨٣هـ.

ثم أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخرّاز المتوفّى سنة ٢٨٦هـ، وهو أول من تكلم في الفناء والبقاء.

ثم ظهر إمام الصوفية الجنيد، أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه بالعراق، توفّي سنة ٢٩٧هـ ببغداد؛ ومن قوله: التصوّف صفاء المعاملة مع الله. إن الله يُخلص إلى القلوب مِنْ بِرِّه على حسب ما تُخلص إليه القلوب من ذِكره، فانظر ماذا خالط قلبك. المريد الصادق غني عن علم العلماء. التصوّف أن تكون مع الله بلا علاقة.

ومن تلاميذ الجنيد أبو منصور الحلاج الذي نقلت عنه مقالات في الحلول أفتى فيها العلماء بإباحة دمه، فقتل ببغداد سنة ٣٠٩هـ.

وأخذ المتصوّفة يضعون الكتب في التصوف محاذاة لكتب الفقهاء، ومن أشهر هذه الكتب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، أصله من إقليم الجبل وسكن مكة فنسب إليها، وأقام ببغداد مدة وبالبصرة مدة، وشطح في كلامه؛ وقد مات ببغداد سنة ٣٨٦هـ.

وكان طبيعيًّا أن يثور الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة لاختلاف النزعتين. فالمتصوّف يعتمد على القلب وعلى الذوق وعلى المعرفة من طريق الإلهام وعلى

الباطن؛ والفقهاء يعتمدون على ظاهر القرآن والسنّة، وعلى الاستنباط منهما من طريق المنطق والعقل، وليس عندهم باطن ولا حقيقة وراء ظاهر النصوص وفهم معانيها. والصوفيّ يعنى بالروح والنفس؛ والفقيه يعنى بالجانب الظاهري والعملي. والصوفي روحاني نفساني؛ والفقيه قانوني. والصوفي يعنى بالحب الإلهي، ولا يعنيه كثيرًا أمر الثواب والعقاب؛ والفقيه يعنى بأداء العبادات، ويعتمد كثيرًا على الثواب والعقاب إلخ.

فلا عجب إذن إذا اصطدمت الطائفتان، ولا عجب إن كان أكبر اصطدام لهما في العراق إذ كانت الموطن الأكبر للمتصوفة، وخصوصًا في البصرة حيث كانت منزل الهنود القادمين إلى العراق، وبغداد حيث تلتقي الثقافات.

وكانت الخصومة أشدّ ما يكون بين الحنابلة والصوفية لشدّة تمسّك الحنابلة بظاهر النصوص، ولأثر أحمد بن حنبل نفسِه في ذلك، فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي الصوفي كلامه في التصوف حتى اختفى المحاسبي، ولما مات لم يحضر جنازته إلا أربعة؛ وعاب عليه ابن حنبل وتلاميذه كلامه في الخواطر والوساوس، وقال إن هذه بدعة. ورمى الحنابلة الصوفية بالزندقة وأثاروا الناس عليهم، وكان من أشهر الحوادث في ذلك المحنة المعروفة بمحنة «غلام الخليل»، وكان ذلك سنة ٢٦٢هـ، إذ جاء «غلام الخليل». وكان حنبليًّا معروفًا بالحديث والفقه والوعظ، وقد وصفه أبو داود السجستاني بأنه دجّال بغداد، واتهم الصوفية بالزندقة، وشَغَب عليهم العامة، وسعى عند الخليفة، وعند والدة الموفق، فأمر بالقبض على عدد كبير من الصوفية بلغوا نيفًا وسبعين. وانتهت المحنة بقتل بعضهم، وهرب بعضهم وتبرئة بعضهم.

ثم كانت فتنة الحلاّج الكبرى فاتهم بالكفر ودعوى الألوهية، ورصدت فتوى

من محمد بن داود الظاهري بتكفيره سنة ٢٩٧هـ، ثم قبض عليه وحُوكِمَ؛ وصدرت الفتوى بإباحة دمه من أبي عَمر بن يوسف الأزدي وأبي الحسين بن الأشناني، ووقَّع الخليفة بموته، فقتل الحلاج وصلب وقطعت أطرافه، وأحرق سنة ٣٠٩هـ.

فنرى من هذا شدَّة ما كان بين الصوفية والفقهاء في العراق من نزاع.

ونشطت حركة الفلسفة والنقل في العراق في العهد البويهي نشاطًا كبيرًا، فكان من أكبر فلاسفة بغداد أبو سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، شيخ رجال الفكر في بغداد، وقد وصفه تلميذه أبو حيان بأنه «أدق -العلماء- نظرًا، وأقعرهم غوصًا، وأصفاهم فكرًا، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر، مع تقطع في العبارة، ولُكنة ناشئة من العجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من ها الكنز»[1].

وكان مجلسه في بيته مدرسة فكرية تثار فيها أدق المسائل، ويدلي فيها كبار العلماء بآرائهم، ولأبي سليمان الكلمة الأخيرة فيما يعرضون.

فيجتمع عنده أمثال أبي زكريا الصيمري، وأبي حيان التوحيدي، والنُّوشَجَاني والقُومَسي، وغلام زحل، ويتجادلون -مثلًا- في هل هناك تأثير للنجوم في الحوادث الأرضية؛ وفي أفعال الله هل هي ضرورة أو اختيار؛ وفي السماع والغناء. ولمَ يؤثران في النفس؛ والعلاقة بين المنطق والنحو؛ ونعيم أهل الجنة وكيف يكون؛ والفرق بين طريقة المتكلمين والفلاسفة؛ والحظوظ والأرزاق، والدهر وحقيقته.

فكان بيته مدرسة تنشط فيها الحركات الفكرية، وتثار فيه أعقد المسائل أحيانًا ارتجالًا وأحيانًا بقراءة رتيبة؛ فقد درَّس في بيته -مثلًا- كتاب النفس لأرسطو

(١) الإمتاع: ١/ ٣٣.

وحضره عليه أبو حيان التوحيدي.

ويطلعنا أبو حيان التوحيدي في كتابه «المقابسات» و«الإمتاع والمؤانسة» على محاضر لهذه الجلسات وغيرها مما كان يدور بين العلماء في بغداد، فيدلنا على نشاط ذهني فلسفي عجيب، وحرية في التفكير عظيمة، وثروة في رجال الفكر والنشاط العقلي كبيرة؛ فيروي لنا -مثلًا- مناظرة كبرى بين أبي سعيد السيرافي النحوي وبين متَّى بن يونس القُنَّائي في المنطق اليوناني والنحو العربي سنة ٣٢٠هـ، وكانت في بغداد، واحتشد لهذه المناظرة كثير من العلماء ورسول للإخشيديين بمصر ورسول للسامانيين. وكان أساس المناظرة أن متَّى يقول لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب، والخير من الشر، والحجة من الشبهة، والشك من اليقين إلا بالمنطق حسبما رسمه أرسطو؛ وكان أبو سعيد يرى أن هذه الأمور تعرف بالعقل الفطري من غير حاجة إلى المنطق، وليس علم المنطق إلا أشكالًا؛ فهب أن الأشكال صحيحة فبمَ تعرف جوهر الأشياء وحقيقتها؟ أليس من طريق العقل؟! وتحوّرت المناقشة بعد ذلك إلى مسائل فرعية لا نطيل بها، كدعوى أنه لا حاجة بالمنطقي إلى النحو وبالنحوي حاجة إلى المنطق إلخ.

ويحكي مجلسًا عند الوزير ابن سعدان حضره جماعة من متفلسفة النصارى جرى فيه البحث في الإصلاح الخلقي وتقسيمه إلى سهل وعسير كالإصلاح البدني.

ومحضر جلسة أخرى عند عيسى بن علي بن عيسى الوزير في السبب الذي من أجله يولع كل ذي علم بعلمه.

ومناظرة بين ماني المجوسي وأبي الحسن محمد بن يوسف العامري في النفس بعد الموت هل تبقى أو لا تبقى.

ومناقشة في أن معرفة الله هل هي ضرورية أم استدلالية، إلى كثر من أمثال ذلك مما يدلّ على جوّ مملوء بالأفكار الفلسفية، وميل عقلي إلى فلسفة الأشياء، والعمق في التفكير فيها.

واشتهر بالطب والفلسفة في بغداد ابن بطلان وهو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون النصراني، وهو الذي كان له المساجلات الطويلة المقيدة مع ابن رضوان المصري، فلما طالت سافر على مصر لزيارة منافسه سنة ٤٣٩هـ وعرج على حلب، ثم وصل مصر سنة ٤٤١هـ وأقام بها ثلاث سنين، ثم عاد إلى بغداد. وقد تقدم طرف مما كانت تدور حوله المناظرة عند ترجمة ابن رضوان. وقد وصل إلينا من كتبه كتاب شراء العبيد وكتاب دعوة الأطباء، وقد صنّف أيضًا في تقويم الصحة، وكيفية دخول الغذاء في البدن وهضمه، والمدخل إلى الطب... إلخ.

وكان من أشهر المشتغلين بالفلسفة في بغداد يحيى بن عَدِيّ النصراني، وكان رئيس المناطقة في زمانه، أخذ العلم عن بشر بن متى وعن الفارابي، وكان كثير الإنتاج بما ينقل من السريانية إلى العربية وبما يؤلّف وبما ينسخ؛ وقد عمّر إحدى وثمانين سنة كان فيها حركة دائبة ألّف مقالات كثيرة في المنطق وفي الإلهيات، ومات ببغداد سنة ٣٦٤هـ؛ وصفه أبو حيان التوحيدي بأنه «كان شيخًا لين العريكة، مشوّه الترجمة رديء العبارة، وكان مبارك المجلس، وكان ينبهر في الإلهيات ويضلّ فيها».

وممن اشتهر بالفلسفة أيضًا أبو علي بن زُرعة النصراني، اشتهر بالمنطق وعلوم الفلسفة، والنقل إلى العربية، اختصر كتاب أرسطو في المعمور من الأرض وألّف كتاب أغراض كتب أرسطو المنطقية، ومقالة في العقل... إلخ. مات ببغداد سنة ٣٩٨هـ. وقد فضله أبو حيان على يحيى بن عدي فقال: «إنه كان حسن الترجمة صحيح النقل، كثير الرجوع إلى الكتب، محمود النقل إلى العربية... ولولا توزع فكره

في التجارة ومحبته في الزبح وحرصه على الجمع لكانت قريحته تستجيب له». وهو يشير على أنه كان مفتونًا بالتجارة مع القسطنطينية فاغتنى ولكن صودرت أمواله ووقع في محن حتى أصيب بالفالج.

كما اشتهر نظيف القسي الرومي، وكان خبيرًا باللغات، ينقل من اليوناني إلى العربي، واستخدمه عضد الدولة البويهي في البيمارستان الذي أنشأه ببغداد؛ قال أبو حيان: إن نظيفًا كانت يده في الطب أطول، ولسانه في المجالس أجول، ومعه وفق وحذق في الجدل.

وغير هؤلاء كثيرون عنوا بالفلسفة في بغداد كابن السمح، وأبي بكر القُوَسي، وابن الخمار، وأبي الوفاء البزجاني الرياضي المشهور؛ قال فيه ابن خلكان: إنه أحد الأئمّة المشاهير في علم الهندسة، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها، قدم العراق سنة ٣٤٨هـ، ومات به سنة ٣٨٧هـ.

ومن هذه الطبقة أبو عليّ أحمد بن محمد مسكويه، كان خازنًا لكتب عضد الدولة، واختص من الفلسفة بالناحية الخلقية، فألّف تهذيب الأخلاق، كما ألف في التاريخ كتابه تجارب الأمم جرى فيه على نسق خاص، وهو الاهتمام بمواضع العبرة في الأحداث التاريخية، والتعليق عليها تعليق الحكيم المجرّب.

وظهر بالبصرة في القرن الرابع للهجرة جماعة إخوان الصفاء، وكان منهم -كما حدّث أبو حيان التوحيدي- زيد بن رفاعة، وأبو سليمان محمد بن معشر البُسْتي المعروف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني، والعوفي؛ وغيرهم، «وكانت هذه الجماعة قد تألفت بالعِشرة، وتصافت بالصداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهبًا زعموا أنهم قرّبوا

به الطريق إلى الفوز برضوان الله؛ وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات، واختلطت بالضلالات، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة؛ لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية، فقد حصل الكمال، وصنّفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها، وأفردوا لها فهرستًا وسموها رسائل إخوان الصفا، وكتموا فيها أسماءهم، وبثّوها في الوراقين ورهبوها للناس»[1].

وعلى الجملة فقد كانت الحركة الفلسفية في العراق من أرقى الحركات الفلسفية في المملكة الإسلامية.

وقد نبغ في العراق في ذلك العصر كثير من الشعراء والأدباء، من أشهرهم في بغداد ابن نباتة السَّعْدِي مدّاح الملوك والرؤساء والوزراء، مدح سيف الدولة في حلب كما تقدم، ومدح عضد الدولة والوزير المهلبي في العراق، وابن العميد في الري؛ وله مقطوعات كثيرة في الغزل وشكوى الزمان، وأكثر من الوصف وأجاد، فوصف كماة الحرب وأسرى الروم، والفَرَس، والمغنّى، والسكين، وطيب الهواء، وخوالج نفسه... إلخ. وقد جمع شعره بين الرّقة والسهولة وحسن السبك، ومات سنة ٤٠٥ هـ ببغداد.

ثم أبو الحسن السَّلاَمي نسبة على دار السلام، شاعر عربي الأصل من بني مخزوم، ولد في كرخ بغداد، مدح الصاحب بن عباد بأصفهان، وابن العميد في الريّ، وعضد الدولة بشيراز، وسلك مسلك أبي نِوَاسٍ في التشبيب بالغلمان، وجرى على سنة عصره في الإكثار من المقطوعات، ووصف ما يعرض من الأشياء. وقد وصف شِعب بَوّان وصفًا لم يستطع الوصول فيه إلى ما وصل له المتنبي في وصفه، ويفحش

(١) الإمتاع والمؤانسة.

أحيانًا فيفرط في الفحش، ويهجو فيقذع في الهجاء، على عادة كثير من شعراء هذا العصر.

ثم ابن سكّرة، وابن حجاج؛ وقد سبق طرف من الكلام عليهما.

وقد وصف أبو حيان التوحيدي بعض المشهورين من الشعراء في وقته ببغداد، فكان مما قال: «إن ابن نباتة شاعر الوقت، لا يدفع إلا حاسد أو جاهل أو معاند، قد لحق عِصابة سيف الدولة وعدا معهم ووراءهم، حسن الحذو على مثال سكان البادية، لطيف الالتئام بهم، خفيّ المغاص في واديهم، ظاهر الإطلال على ناديهم، هذا مع شعبة من الجنون، وطائف من الوسواس.

وأما ابن حجاج فسخيف الطريقة، بعيد عن المجد، قريع في الهزل، ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرضه مثال، على أنه قويم اللفظ، سهل الكلام... وهو شريك ابن سُكّرة في هذه الغرامة -الخسارة- وإذا جدّ أقعى، وإذا هزل حكى الأفعى.

وأما السلامي فهو حلو الكلام، متّسق النظام، كأنما يبتسم عن ثغر الغمام، خفيّ السرقة، لطيف الأخذ، واسع المذهب، لطيف المغارس، جميل الملابس، لكلامه لَيْطة بالقلب، وعبث بالروح، وبرد على الكبد.

وأما الحاتمي[1]، فغليظ اللفظ، كثير العُقَد، يحب أن يكون بدويًّا قُحًّا، وهو لم يَتم حضريًّا، غزير المحفوظ، جامع بين النظم والنثر على تشابه بينهما في الجفوة، وقلة السلاسة.

---

(١) هو محمد بن الحسين الحاتمي، صاحب الرسالة الحاتمية فيما جرى بينه وبين المتنبي مات سنة ٣٨٨هـ.

وأما ابن جَلَبَات[١] فمجنون الشعر، متفاوت اللفظ، قليل البديع، واسع الحيلة، كثر الزَّوَق؛ التزويق، قصير الرشاء، كثير الغثاء.

وأما الخالع[٢] فأديب الشعر، صحيح النحت، كثير البديع، مستوي الطريقة، متشابه الصناعة، بعيد من طفرة المتحيِّر، قريب من فرصة المتخيِّر.

وأما مسكويه[٣] فلطيف اللفظ، رطب الأطراف، رقيق الحواشي، سهل المأخذ، قليل السكب، بطيء السبك، مشهور المعاني، كثير التواني، شديد التوقّي، ضعيف الترقّي، يرد أكثر مما يَصْدُر، ويتطاول جهده ثم يقصر»[٤].

كما كان من أكبر شعراء هذا العصر في بغداد الشريف الرضي؛ وقد تقدم القول فيه.

واشتهر من شعراء البصرة في هذا العصر البويهي ابن لَنْكَك البصري. وقد رأى غيره من الشعراء ينفق سوقه وهو خامل، مع أدبه وظرفه، فأكثر من ذم الدهر، وشكوى الزمان، وهجاء من نجح من الشعراء، وهو في المقطوعات القصيرة أجود منه في القصائد الطويلة.

ونبغ في العهد البويهي أربعة من كبار الكتّاب، اثنان في الجزء الفارسي الجنوبي،

---

(١) هو أبو القاسم علي بن جلبات، شاعر عراقي مدح الخليفة القادر بالله والوزير سابور بن أردشير.

(٢) هو أبو علي الحسن بن علي الخالع من شعراء الوزير سابور بن أردشير.

(٣) عدّه أبو حيان من الشعراء أيضًا كما هو من الفلاسفة والمؤرّخين.

(٤) انظر الإمتاع: ١/ ١٣٤ وما بعدها، وتجد نماذج لهؤلاء الشعراء ما عدا مسكويه في الجزء الثاني من اليتيمة للثعالبي.

وهما: ابن العميد، والصاحب بن عبّاد، وسيأتي الكلام فيهما، واثنان في العراق، وهما: أبو إسحاق الصابي، وأبو القاسم عبد العزيز بن يوسف.

فأما الصابي فهو إبراهيم بن هلال الحرَّاني الصابي، صاحب الرسائل المشهورة المطبوعة، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عزّ الدولة البويهي، وتقلّد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩هـ، وقد ظل محافظًا على دينه الوثني، رغم ما خوطب ومنّي ووعد بالوزارة إذا هو أسلم، في ملاطفة للمسلمين ومجاراتهم والاحتفال بشعائرهم، فكان يصوم رمضان، ويحفظ القرآن كان مع صابئيته محبوبًا من عظماء المسلمين، مقربًا إليهم، مبجلًا موقّرًا، كالصاحب ابن عباد، والزير المهلبي. وقد حكى ياقوت عند أنه قال: «راسلت المتنبي في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم، ووسطت بيني وبينه رجلًا من وجوه التجار، فقال المتنبي للوسيط: قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك، ولكن إن مدحتك تنكر لك الوزير -يعني: الوزير المهلبي- وتغير عليك؛ لأني لم أمدحه، فإن كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد عن شعري عوضًا».

وقد كان الصابي يناصر عزّ الدولة على عضد الدولة، فلما انتصر عضد الدولة وقتل عز الدولة قبض على الصابي وحبسه وأراد إلقاءه تحت أرجل الفيلة، فتشفّعوا له فشفع، ولكن لم يزل في نفسه منه، وأمره عضد الدولة أن يؤلف له كتابًا في أخبار الدولة البويهية، فعمل له الكتاب «التاجي». وقد وشى بعض الناس إلى عضد الدولة أن الصابي سئل وهو يكتب هذا التاريخ: ماذا تصنع؟ فقال: «أباطيل أنمّقها وأكاذيب ألفّقها»؛ فقبض عليه، وحبس أربع سنين، ثم خرج وقد ساء حاله، ومات ببغداد سنة ٣٨٤هـ عن إحدى وسبعين سنة.

وقد كان يعدّ من أعظم كتاب عصره، وأسلوبه -كما تدل عليه رسائله- فقرات

متساوية، مسجوعة أحيانًا، مزدوجة أحيانًا. وقد وصفه ابن الأثير أنه إمام الكتّاب في عصره، وأنه يجيد في الكتابة الرسمية؛ -السلطانيات- ويقصر في الإخوانيات، وأخذ عليه تكراره في معنى واحد كقوله: «لا تخلقه العصور بمرورها، ولا تهرمه الدهور بكرورها».

ولما مات رثاه الشعراء، ومنهم الشريف الرضي في قصيدته المشهورة:

أرأيت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادي

يقول فيها:

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيًا ... أنّى ومثلك مُعْوز الميلاد

مَن للممالك لا يزال يلمّها ... بسداد أمر ضائع وسداد

من للجحافل يستزلّ رماحها ... ويرد رَعْلتها[1] بغير جِلاد

وصحائف فيها الأراقم كُمَّنٌ ... مرهوبة الإصدار والإيراد

حمر على نظر العدوّ كأنّما ... بدم يخطّ بهن لا بمداد

يُقدمن إقدام الجيوش وباطل ... أن ينهزمن هزائم الأجناد

إن الدموع عليك غير بخيلة ... والقلب بالسلون غير جواد

وأما أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، فكان يعدّ من أكبر كتّاب عصره، تقلّد ديوان الرسائل لعضد الدولة، وتقلّد الوزارة بعده عدة مرات لأولاده، وهو في أسلوبه أقلّ التزامًا للسجع وإن كان يزاوج، وفي إخوانياته يمزج شعره بنثره[2].

---

(١) الرعلة: القطعة من الفرسان.

(٢) انظر: نماذج من كتاباته في الجزء الثاني من اليتيمة.

ومن أشهر الكتّاب البويهيين أبو حيان التوحيدي، وقد كان من نوع آخر، فكتابته يعنى فيها بالموضوع كما يعنى بالشكل؛ وهو غزير العقل واسع العلم حسن الصياغة، جيّد السبك وبحق لقبوه بالجاحظ الثاني، وقد وصل إلينا من كتبه «الإمتاع والمؤانسة»، و«المقابسات»، و«البصائر»، ورسالة في الصداقة، وأسلوبه فيها أسلوب أدبي راق يحب الازدواج ويطيل البيان، ويولد المعاني حتى لا يدع لقائل بعده قولًا، كثير المحفوظ، واسع المعرفة، له اتصال تام بالفلسفة، والتصوف والأدب من شعر ونثر، والتاريخ والسير، خبير بأحوال الزمان. حمله البؤس على أن يتنقل في الأمصار، ويتصل بالعامة، ومكنه أدبه أن يتصل بالوزراء كابن العميد، وابن عباد، وابن سعدان، فعرف من أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم الشيء الكثير، ودوّن ذلك في كتبه، وفي أسلوبه بعض الغموض إذا تعرض للمسائل الفلسفية لطبيعية الموضوع وعمقه، واضح كل الوضوح إذا تعرض للمسائل الأدبية والاجتماعية. وقد اتجه اتجاهًا لطيفًا في تدوينه في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» ما دار في المجلس بينه وبين الوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي، كما دون في كتابه «المقابسات» محاضر جلسات لكثير من العلماء وخاصةً أبا سليمان المنطقي.

ونبغ في الأدب واللغة أبو بكر محمد بن دريد الأزدي، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣هـ ثم مكث بعُمان اثنتي عشرة سنة، ثم عاد إلى البصرة، ثم ذهب إلى فارس وصحب ابني ميكال وكانا واليين على فارس، ثم عاد إلى بغداد سنة ٣٠٨هـ، وظل بها إلى أن مات سنة ٣٢١هـ وهي السنة التي تسلط فيها البويهيون على العراق.

وكان من أكبر علماء العربية، مقدّمًا في اللغة والأدب، ونبغ من تلاميذه كثيرون أشهرهم أبو علي القالي وأبو سعيد السيرافي.

وعنه يروي أبو علي القالي في أماليه قصصًا أدبية رائعة، هي أشبه أن تكون من

وضع ابن دريد، ويعدّها «الحُصْري» أساسًا لمقامات بديع الزمان.

وله كتاب «الجمهرة في اللغة، و«المقصورة»، وكتاب «الاشتقاق» إلخ، وتفوّق في نواح كثيرة في الأدب -فهو شعر قصاص- وفي اللغة، وفي النحو والصرف والأنساب.

وقد انطبعت صورته العلمية في مؤلّفين كبيرين تتلمذا له، وهما أبو علي القالي صاحب الأمالي ناشر علم اللغة والأدب في الأندلس، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني، وكان من خاصة تلاميذه.

ثم أبو بكر بن الأنباري كان من أعلم البغداديين لغة وأدبًا، وأكثر الناس حفظًا للشعر والشواهد، كما يعدّ من علماء القرآن والسنّة، وألّف في ذلك كله الكتب الكثيرة في علوم القرآن وغريب الحديث، والوقف والابتداء، وفي اللغة كتاب الأضداد. وقد وصل إلينا من كتبه الدالة على غزارة علمه بالأدب واللغة شرحه للمفضليات؛ مات سنة ٣٢٨هـ، وكان كذلك شيخًا من أكبر الشيوخ الذين استفاد منهم أبو الفرج الأصفهاني.

وقد نبغ من مؤلّفي الأدب في العصر البويهي في العراق أبو الفرج الأصفهاني مؤلف كتاب الأغاني، متعة الأدباء على اختلاف العصور. ينتهي نسبه إلى آخر خلفاء الأمويين مروان بن محمد. وقد ولد بأصبهان سنة ٢٨٤هـ، ونشأ ببغداد، وأخذ العلم والأدب والتاريخ عن ابن دريد، وابن الأنباري، وابن جرير الطبري وغيرهم، وامتاز باطّلاعه الواسع على الشعر والأغاني، والأخبار والنسب، كما كان ملمًا بآلات الطرب، وطرف من الطب والنجوم والأشربة، ويقرأ الكتب المخطوطة، ويأخذ عنها فيقول: نقلت من كتاب كذا.

وقد اتصل بالوزير المهلّبي، وحظى عنده. وألّف كتبًا كثيرة منها كتاب «الأغاني» وهو أمتعها. وقد قال: إنه ألفه في خمسين سنة، وكتاب «القيان»، و«مقاتل الطالبيين»، و«الإماء الشواعر» و«الديارات» إلخ، ومات في بغداد سنة ٣٥٦هـ أو بعد ذلك.

وقد حظي كتابه «الأغاني» في عصره وبعده إلى اليوم؛ فقد أهدى أول نسخة منه إلى سيف الدولة فأجازه بألف دينار، وأعجب به الصاحب بن عباد، وكان يستصحبه في أسفاره، وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف: «لم يكن كتاب الأغاني يفارق عضد الدولة في سفره ولا حضره».

كما كان من كبار رجال الأدب القاضي التنوخي، وهو أبو القاسم عليّ بن محمد التنوخي من أعيان أهل العلم والأدب، تولّى قضاء البصرة والأهواز بضع سنين، وكان على فقهه أديبًا وشاعرًا ظريفًا، وكان من ندماء الوزير المهلبي وسماره، «وكان الوزير المهلبي وغيره من رؤساء العراق يميلون إليه، ويتعصبون له، ويعدونه ريحانة الندماء، وتاريخ الظرفاء، وكان في جملة الفقهاء والقضاء الذين ينادمون الوزير المهلبي، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط في القصف والخلاعة» إلخ[1]، وكان فقيهًا على مذهب أبي حنيفة معتزليًّا له شعر كثير، ومنه مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد، ومات بالبصرة سنة ٣٤٢هـ.

وقد أنجب ابنه أبا عليّ المُحسّن التنوخي، وكان أديبًا شاعرًا أخباريًّا؛ وهو صاحب كتاب «نِشْوار المحاضرة»، أراد به أن يحقق فكرة لطيفة وهي أن يدوّن تاريخ الأحداث التي تَدور في المجالس وعلى ألسنة الرواة ولم تدوّن في الكتب، كما أنه ألّف كتاب «الفرج بعد الشدة»، وكتاب «المستجاد من فعلات الأجواد»، وقد مات

(١) ابن خلكان: ١/ ٥٠٣.

ببغداد سنة ٣٨٤هـ.

وقد أنجب هذا أيضًا أبا القاسم عليّ بن المحسِّن التنوخي، وكان مثل أبيه وجدِّه فقيهًا شاعرًا أديبًا؛ وكان هو والخطيب التبريزي يصبحان أبا العلاء المعرّي ويأخذان عنه. تولّى علي بن المحسن القضاء في عدة نواح، وإليه كتب أبو العلاء قصيدته التي أوَّلها:

هـات الحـديث عـن الـزوراء أوهيتـا

مات سنة ٤٤٧هـ.

فأسرة التنوخي من خير الأسر العراقية علمًا وأدبًا وتأليفًا.

ثم الشريف المرتضى علي بن الطاهر، كان نقيب الطالبيين في بغداد، وهو أخو الشريف الرضي؛ وكان إمامًا في علم الكلام والأدب والشعر. وقد وصل إلينا من أهم تآليفه كتاب «أمالي المرتضى»، وهو ستة وخمسون مجلسًا، مملوء بالفوائد القيّمة في التفسير والحديث وعلم الكلام والأدب ممزوج بعضها ببعض، ناح فيه منحى الاعتزال والتشيّع معًا، ويستطرد لذكر تراجم لرجال المعتزلة وبعض الشعراء والأدباء؛ ويظهر أنها دروس أملاها على بعض تلاميذه، وهي تفيدنا فائدة كبرى في مناهج الدروس في ذلك العصر.

وقد توفّي ببغداد سنة ٤٣٦هـ.

ثم أبو سعيد السيرافي، وكان من أوسع العلماء ثقافة في علوم القرآن والحديث والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر.

كان أبوه مجوسيًّا فأسلم وكان أبو سعيد هذا من أعلم الناس بالعربية مع زهد

وصلاح وعفّة؛ صنّف تصانيف كثيرة أكبرها شرح كتاب سيبويه، وكثر تلاميذه والأخذ منه والانتفاع به في فروع العلم المختلفة، وكان يميل إلى مذهب الاعتزال، «وكان بينه وبين أبي الفرج الأصفهاني ما جرت العادة بمثله بين الفضلاء من التنافس»[1]، ومات ببغداد سنة ٣٦٨هـ، وتتلمذ له أبو حيان التوحيد، وهو يحكي عنه في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» بعض علمه في اللغة والنحو، ويروي ما يرويه عنه في إجلال وتوثيق.

وقد كان أبو سعيد وهو في بغداد مقصد الأمراء والعظماء في الأمصار المختلفة يبعثون إليه يسألونه عما أشكل عليهم؛ فكتب إليه نوح بن نصر الساماني سنة ٣٤٠هـ كتابًا خاطبه فيه بالإمام، وسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة أغلبها ألفاظ لغوية، وأمثال يسأله فيها عن صحة نسبتها إلى العرب، وكتب إليه الوزير البلعمي كتابًا خاطبه فيها بإمام المسلمين سأله فيه عن مسائل في القرآن، وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتابًا خاطبه فيه بشيخ الإسلام سأله فيه عن مائة وعشرين مسألة أكثرها في القرآن والحديث.

وكتب إليه ابن حنزابة الوزير المصري كتابًا خاطبه فيه بالشيخ الجليل، سأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث.

وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان كتابًا يخاطبه فيه بالشيخ الفرد، سأله فيه عن ثلاثمائة كلمة من فنون الحديث.

وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان كتابًا يخاطبه فيه بالشيخ الفرد، سأله عن سبعين مسالة في القرآن، ومائة كلمة في العربية، وثلاثمائة بيت من الشعر، وأربعين

---

(١) وفيات الأعيان.

مسألة في الأحكام، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المتكلمين، فأجاب عنها كلها؛ وتقع الأسئلة والأجوبة في نحو ألف وخمسمائة ورقة.

ثم هو صاحب المناظرة الكبرى التي جرت بينه وبين أبي بشر متَّى في المفاضلة بين النحو والمنطق. وقد حكاها كلها أبو حيان التوحيدي في الجزء الأول من الإمتاع. وقد وصل إلينا من كتبه كتاب أخبار النحويين البصريين.

وكان نظير أبي سعيد السيرافي وقرينه في النحو والصرف أبو علي الفارسي وهو من أعلام الدولة البويهية، ولد بفارس وأتى بغداد سنة ٣٠٧هـ، وأقام بها يشتغل بالعلم؛ ثم رحل إلى حلب وأقام عند سيف الدولة في حلبته، وله مع المتنبي مناظرات، ثم انتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة وعلت منزلته عنده، وألف أبو علي له كتاب الإيضاح والتكملة في النحو. وله كتاب الحجة في القراءات، ومنه نسخة مخطوطة في دار الكتب، وله كتب أخرى كثيرة. وقد رحل إلى بلاد كثيرة، وكان يدوّن في كتاب ما يجري له من مناظرات في كل بلد، فكتاب المسائل الحلبيات، والبغداديات، والشيرازيات... إلخ.

وقد وازن أبو حيان التوحيدي بينه وبين أستاذه أبي سعيد السيرافي، ففضل السيرافي لسعة علمه ودينه وتقواه، وقال: إن أبا علي كان يشرب ويتخالع ويفارق هَدْي أهل العلم.

وفي الحق أن السيرافي كان أشبه بالمحافظين، يروي ما يسمع، ويحفظ ما يروي على كثرة ما يروى وما يحفظ في ثقة وأمانة، وأنا أبا علي كان حرًّا مبتكرًا قَيَّاسًا، فتح للناس هو وتلميذه ابن جني أبوابًا جديدة في النحو والتصريف لم يُسبقا إليها كما تقدم؛ وقد توفّي أبو علي الفارسي في بغداد سنة ٣٧٧هـ.

وثالث الثلاثة المشهورين في هذا الباب أبو الحسن الرُّمَّاني جمع بين النبوغ في النحو وعلم الكلام، وهو تلميذ ابن دريد أيضًا في الأدب. وقد قال فيه أبو حيان عند الموازنة إنه عالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض، والمنطق، وعِيبَ به، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق، بل أفرد صناعة وأظهر براعة. وقد عمل في القرآن كتابًا نفيسًا، هذا مع الدين والعقل الرزين، توفّي سنة ٣٨٤هـ.

ومن خير ما أخرجته بغداد في هذا العصر ابن النديم -وهو محمد بن إسحاق النديم- كان وراقًا، وكان عالمًا، فاستخدم علمه وصناعته في ناحية لم نعرف أن التفت إليها أحد قبله، وهي أن يحصي جميع الكتب العربية المنقولة من الأمم المختلفة، والمؤلفة في جميع أنواع العلوم، ويصفها ويبين مترجميها أو مؤلفيها، ويذكر طرفًا من تاريخ حياتهم، ويعين تاريخ وفاتهم؛ فكان الكتاب على هذا النمط أجمع كتاب لإحصاء ما ألّف الناس إلى قريب من نهاية القرن الرابع، وأشمل وثيقة تبين ما وصل إليه المسلمون في حياتهم العقلية والعلمية في ذلك العصر، وأكثر هذه الكتب التي وصفها قد ضاعت بتوالي النكبات المختلفة على المملكة الإسلامية، ولا سيما في غزو التتار لبغداد، ولولا كتاب الفهرست» لضاعت أسماؤها وأوصافها أيضًا كما ضاعت معالمها.

والناظر في كتاب «الفهرست» يعجب لهذا النشاط العلمي الذي قام به المسلمون في هذه العصور، وكثرة المؤلفين والمترجمين في جميع نواحي العلم، كما يعجب بسعة اطلاع ابن النديم وحبه للوقوف على كل شيء حتى في أدق مسائل الأديان المختلفة، والمذاهب المتنوعة، ويستقصي البحث عن أحوال الصين والهند، كما يستقصي البحث عن الشام والعراق، وهو في كل ذلك يقابل أصحاب النحل المختلفة ويسائلهم ويدقّق في أخبارهم، ثم يدوّن ما يصل إليه علمه.

وأسلوبه في كتابته أسلوب موجز يكره اللغو والمقدمات، ويحب أن يهجم على موضوعه من غير مواربة ولا تمهيد، حتى لا تستطيع أن تحذف جملة لأن معناها مكرّر أو عبارتها مترادفة. ثم هو يتحرّى الصدق، ويميّز بين ما رأى وما لم ير، وينقل ذلك إلى القارئ في أمانة.

وقد نصّ المؤلف على أنه ألّف كتابه هذا سنة ٣٧٧هـ، وفي الكتاب ذكر لعلماء ماتوا بعد الأربعمائة كابن نباتة التميمي، فلا بد أن بعض العلماء زادوا في نسخته؛ لأنه مات سنة ٣٨٥هـ كما ذكر ابن النجار، أو سنة ٣٧٨هـ كما ذكر المرزباني[1].

فإذا نحن انتقلنا من العراق إلى الجزء الجنوبي من فارس، وهو الجزء الذي حكمه البويهيون أيضًا، وجدنا ثروة كبيرة في العلم في جميع فروعه، وفي الأدب والشعر؛ فشيراز في الجنوب والري في الشمال، كانا من أهم العواصم السياسية والعلمية والأدبية؛ واشتهر من بلاد الجنوب سيراف، وفيروزاباد، وأرزنجان، وإصطخر، وعاصمتها شيراز؛ كما اشتهر من بلاد الشمال وهي بلاد الجبل أصبهان ونهاوند، وهمذان، ودِينَوَر، وقومس، وبسطام وعاصمتها الري، وأخرجت هذه البلاد من المحدّثين والفقهاء والنحاة والفلاسفة والصوفية والأدباء ما لا يحصى كثرة.

فاشتهر من المحدثين والفقهاء أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي الرازي - نسبة إلى دولاب قرية بالريّ - له تآليف في الحديث والتاريخ اعتمد عليها المحدثون؛ وتوفّي سنة ٣٢٠هـ.

وأبو محمد عبد الله بن حَيَّان الأصفهاني محدّث أصفهان، وهو إمام في الحديث،

---

(١) انظر: ما كتبته عنه في مقدمة فهرست ابن النديم الطبعة المصرية.

له كتاب «السنة وفضائل الأعمال»، توفّي سنة ٣٦٧هـ.

وأبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه الأصفهاني، كان يلقّب بمحدّث الشرق؛ توفّي سنة ٣٩٥هـ.

وأبو محمد بن عبد الرحمن بن أبي حاتم بن إدريس الحنظلي حافظ الريّ له المصنّفات الكثيرة في الحديث والفقه؛ توفّي سنة ٣٢٧هـ.

والقاضي يوسف بن أحمد بن كَجّ الدينَوَري أحد أئمّة الشافعية، قدم إليه أبو علي السنجي بعد أن رأى أبا حامد الإسفرائيني في بغداد؛ فقال له أبو علي: إن الاسم لأبي حامد، والعلم لك؛ فقال له: ذاك رفعته بغداد وحطّتني الدينور، قتل بها سنة ٤٠٥هـ.

ويطول بنا القول لو عددنا مشاهير المحدّثين والفقهاء في هذا الإقليم؛ ثم كان لعضد الدولة قبل انتقاله إلى بغداد، وابن العميد في إقامته بالريّ وزيرًا، وابن عبّاد كاتبًا ووزيرًا في أصفهان والريّ، أثر كبير في نشاط الحركة الأدبية والعلمية نشاطًا عجيبًا.

لقد تقسّم الأمراء الثلاثة البويهيون مملكتهم، فكان عماد الدولة صاحب بلاد فارس والأهواز، وركن الدولة صاحب بلاد الريّ والجبل، ومعزّ الدولة صاحب العراق؛ وجاء عضد الدولة بن ركن الدولة فضمّ العراق إلى ملكه، كما ضمّ غليه ملك البويهيين جميعًا تقريبًا، وضمّ إليه الموصل وبلاد الجزيرة وسمّي بالملك، وهو أول من سمي بذلك في الإسلام، وكان يقيم أحيانًا في الريّ، وأحيانًا في شيراز؛ فلما فتح العراق كانت عاصمة ملكه بغداد.

وابن العميد كان وزيرًا لركن الدولة صاحب بلاد الريّ والجبل، وكان ابن العميد مركزه الريّ، واستمر وزيرًا نحو اثنتين وثلاثين سنة حتى مات سنة ٣٦٠هـ.

وابن عباد كان كاتبًا عند ابن العميد، ولأجل تلمذته لابن العميد وصحبته له سمّي الصاحب، وظل الصاحب يكتب لابن العميد في الريّ؛ ثم اختاره ابن العميد ليكون مربيًا لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة وولّي عهده، وكانت إقامته في أصفهان؛ ثم أصبح وزيرًا لمؤيد الدولة إلى سنة ٣٧٣هـ، ثم وزيرًا لأخيه فخر الدولة إلى أن توفّي سنة ٣٨٥هـ، وخَلَف ابن العميد في مركزه في الوزارة وفي إقامته في الريّ.

فهؤلاء الأعلام الثلاثة: عضد الدولة البويهي، والوزيران ابن العميد، وابن عباد، جعلوا هذا القسم من فارس في منتهى الخصب العلمي والأدبي؛ إذ كان كل منهم على إمارته أو وزارته عالمًا أديبًا، يرى أول ما يجب عليه أن يزيّن بلاطه ومجلسه بالعلماء والأدباء.

فعضد الدولة كان إلى ملكه الواسع مثقّفًا ثقافة واسعة، يأخذ علم النحو واللغة عن أبي علي الفارسي، وهذا يؤلّف له كتاب «الإيضاح والتكملة في النحو»، وله معه مناقشات طريفة؛ ويقصده الشعراء فيجيدون الشعر لمعرفتهم بتذوّقه له، فقصده المتنبي أيام كان عضد الدولة بشيراز، وقال فيه:

وقد رأيت الملوك قاطبة ... وسرت حتى رأيت مولاها

وَمن مناياهم براحته ... يأمرها فيهم وينهاها

أيام شجاع بفارس عضد ... الدولة فنّاخسرو شهنشاها

أسامیا لم تزده معرفة ... وإنما لذّة ذكرناها

ثم أنشده قصيدة نونية ذكر فيها شِعْب بَوّان، وهو موضعٌ نزه قرب شيراز:

يقـــول بـــشعب بـــوان حـــصاني ... أعـــن هـــذا يـــسار إلى الطعـــان
أبـــوكم آدم ســـنّ المعـــاصي ... وعلمكـــم مفارقـــة الجِنـــان
فقلـــت إذا رأيـــت أبـــا شـــجاع ... ســـلوت عـــن العبـــاد وذا المكـــان
فـــإن النـــاس والـــدنيا طريـــق ... إلى مـــن مـــا لَـــه في النـــاس ثـــان

ثم مدحه بقصائد أخرى. وآخر شعره أيضًا كافيته التي يقول فيها:

أروح وقـــد ختمـــت عـــلى فـــؤادي ... بحبـــك أن يحـــل بـــه ســـواكا

ومدحه غير المتنبي كثير من الشعراء.

وعضد الدولة هو الذي بنى البيمارستان العضدي ببغداد، وغرم عليه المال الكثير، وأعدّ له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه[1].

وابن العميد تفوّق في علوم كثيرة منها الهندسة والمنطق، وعلوم الفلسفة والإلهيات والطبيعة والتصوير، وكان أديبًا واسع الرواية لأشعار العرب.

قال مسكويه في كتابه «تجارب الأمم»، وكان قيّم دار كتب ابن العميد في بعض وقته: كان هذا الرجل -ابن العميد- أكتب أهل عصره، وأجمعهم لآلات الكتابة حفظًا للغة والغريب، وتوسعًا في النحو والعروض، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظًا للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام... فأما تأويل القرآن، وحفظ مشكله وتشابهه، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار، فكان منه في أرفع درجة، وأعلى رتبة؛ ثم إذا ترك هذه العلوم، وأخذ في الهندسة والتعاليم لم يكن يدانيه فيها أحد؛ فأما المنطق، وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة، فما جسر أحد

(١) وفيات الأعيان في ترجمته.

في زمانه أن يدعيها بحضرته... ثم كان يختصّ بغرائب من العلوم الغامضة كعلوم الحيل -الميكانيكا- التي يحتاج إليها في أواخر علوم الهندسة والطبيعة، والحركات الغريبة، وجرّ الأثقال، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع، والحيل على الحصون... ثم معرفته بدقائق علم التصاوير؛ ولقد رأيته يتناول من مجلسه -الذي يخلو فيه بثقاته وأهل أنسه- التفاحة وما يجري مجراها فيعبث بها ساعة، ثم يدحرجها، وعليها صورة وجه قد خطّها بظفره لو تعمدّ لها غيره بالآلات المعدّة، وفي الأيام الكثيرة ما استوفى دقائقها، ولا تأتّى له مثلها».

وقد قصده المتنبي أيضًا، ومدحه وقال فيه:

مَن مُبلغ الأعراب أنّي بعدهم ... شاهدت رسطاليس والإسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كتبه ... متملّكًا متبدّيًا متحضّرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما ... ردّ الإله نفوسهم والأعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدمًا ... وأتى فذلك إذا أتيت مؤخّرا

بأبي وأمي ناطق في لفظه ... ثمن تباع به القلوب وتشترى

قطف الرجال القول وقت نباته ... وقطفت أنت القول لما نوّرا

والصاحب بن عباد كان يعتقد مذهب الاعتزال وينصره، وبذلك اعتنق كثير من أهل هذه البلاد الاعتزال، ولم يكن كأستاذه ابن العميد في حبه للفلسفة وأهلها، إنما كان متبحرًا في العلوم الشرعية واللسانية والأدبية؛ تعلم الحديث كأهل الحديث؛ وكان عالمًا بالتوحيد والأصول وألّف فيهما؛ وكان علمه باللغة واسعًا، قالوا: إنه ألّف فيها كتاب المحيط في عشرة مجلّدات.

وكان له المنزلة العظمى في الوجاهة والصدارة، فاجتمع له من الأدباء ما قلّ أن

يجتمع لغيره، قال الثعالبي: «احتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنه في الأخذ برقاب القوافي وملك رق المعاني».

أنجبت هذه البلاد بتشجيع هؤلاء وأمثالهم نوابغ من العلماء والأدباء.

ففي الفلسفة كان على رأس الفلاسفة أبو بكر محمد بن زكريا الرازي -نسبة على الريّ- مولده ومنشؤه بالريّ ولذلك عددناه منها، وإن تنقّل في بلاد كثيرة، وهو من أكبر فلاسفة المسلمين ومتفوّقيهم في الطب النظري والعملي والإلهيات والكيمياء والأخلاق.

وقد ألّف في كل ذلك كتبًا كثيرة أوصلها بعضهم إلى ما يقرب من مائتين. وله فضل اكتشاف الكحول وزيت الزاج -حامض الكبريتيك- أثناء بحثه في إمكان تحويل المعادن إلى ذهب؛ كما ألّف في الطب كتاب الحاوي والطب المنصوري إلخ[1]. وكانت كتبه عمدة من تعلم بعده، وكانت أكثر إقامته في الريّ وأقام زمنًا عند السامانيين، كما عهد إليه في الإشراف على البيمارستانات وتنظيمها، وقد اشتهر بين أهل زمانه بالإتيان بالعجائب في الطب.

وقد بقي لنا من كتبه نحو سبعة عشر كتابًا؛ وأخيرًا نشر الأستاذ كراوس مجموعة رسائل فلسفية تدلّ على جانب آخر من جوانبه العلمية، فمنها رسالة في الطب الروحاني، ويعني به تهذيب الأخلاق، وهو لا شك كان من أكبر ما اعتمد عليه مسكويه في كتابه «تهذيب الأخلاق»، وقد قال في صدره إنه سماه بالطب الروحاني ليكون قرينًا للكتاب المنصوري الذي غرضه في الطب الجسماني؛ وقد

(١) ألّفه لمنصور بن إسحاق بن أحمد بن أسد حاكم الريّ من سنة ٢٩٠هـ إلى سنة ٢٩٦هـ.

قسمه إلى عشرين فصلًا منها فصل في فضل العقل وقمع الهوى وردعه، وتحليل لبعض الرذائل: كالحسد والغضب والبخل، وختمه بفصل في رسم السيرة الفاضلة، ثم في الخوف من الموت.

ومن رسائله هذه القيمة رسالة في اللّذة وتحليلها معتمدًا في ذلك على ما كتبه فلاسفة اليونان فيها.

ومن هذه الرسائل رسالة في مناظرة بين الرازيين وهما: أبو بكر الرازي هذا وأبو حاتم الرازي، وكلاهما من الريّ، ولكن كانت طبيعة أبي بكر الرازي طبيعة فلسفية حرة التفكير مؤمنة بسلطان العقل، وكان أبو حاتم الرازي من كبار دعاة فرقة الإسماعيلية الشيعية، «واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمي، ولعب دورًا عظيمًا في الشؤون السياسية في طبرستان وأذربيجان وفي الديلم، ولاسيما في أصفهان والريّ حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة».

وقد ألّف أبو حاتم الرازي كتابًا اسماه «أعلام النبوّة» للرّد على أبي بكر الرازي، وقد رماه فيه بالإلحاد؛ وكانت المناظرة تدور حول النبوّة، وهل هي ضرورية - هذا في أحد المجالس - وفي مجلس آخر كانت المناظرة تدور حول ما ذهب إليه أبو بكر الرازي من قِدم الأشياء الخمسة: الباري، والنفس، والهيولى والمكان والزمان، فرد عليه أبو حاتم في ذلك الخ الخ.

وقد كانت هذه المناظرات في مجالس بالريّ.

وعلى الجملة فقد كان أبو بكر الرازي شخصية ممتازة قل نظراؤها؛ وقد اختلف في سنة وفاته على أقوال متباينة أقربها سنة ٣٢٠هـ، وقال ابن خلكان إنه مات سنة ٣١١هـ.

كما اشتهر من الفلاسفة في هذه البلاد أبو الخير الحسن بن سوار المعروف ابن الخمّار، وكان نصرانيًا؛ وقد نقل كتبًا كثيرة من السريانية إلى العربية، واشتهر بالطب، كما ألّف في المنطق والطب والإلهيات.

ثم الفيلسوف الأديب أبو الفرج علي بن الحسين بن هِنْدُو، كان من تلاميذ ابن الخمار، ألّف في الطب، وألّف المدخل في علم الفلسفة، ووصل إلينا من كتبه «الكلم الروحانية»، وهي مجموعة لطيفة من الحكم اليونانية، كما كان شاعرًا معدودًا من رجال البلاغة الممتازين.

ثم إن ابن العميد وابن عباد أوجدا في هذا الإقليم حركة أدبية رائعة؛ فقد جمع بين وجاهة المنصب ووجاهة الأدب، فهما وزيران خطيران وسياسيان كبيران، وأديبان عظيمان، فاستخدما كل ذلك في إعلاء شأن الأدب.

فكان ابن العميد مولعًا بالأدب، وله مذهب في الكتابة أُخذ عنه وقلّد فيه، عماده التأنق في اختيار الألفاظ، والتكلّف في البديع، ومحاربة التطبّع بالتصنّع؛ وهذا النوع من الأسلوب قد يحسن في الجمل القصار، والقول الموجز، ولكن ابن العميد كان يطنب، والإطناب مع التصنع يستوجب الملل، فالإسهاب في الجاحظ حلو سائغ لأنه يجري مع النفسن، ولكنه عند ابن العميد يُتَجرع لأنه يتصنّع؛ ومع هذا فالناس في زمنه وبعد زمنه كانوا يعدّون هذا الأسلوب هو المثل الأعلى؛ لأن حياتهم الاجتماعية كما أسلفنا حياة مصطنعة متكلّفة، ولأن الرياسة والعظمة السياسية والمنصب الكبير يسبغ على الأدب الذي يصدر من رجالها ثوبًا من الأبّهة والعظمة، فلا يستطيعون التمييز في دقة بين قيمة الأدب الذاتية، وقيمته المسمدّة من وجاهة صاحبها؛ وهذا يصدق على ابن العميد، والصاحب ابن عباد، ثم من بعد على القاضي الفاضل، ولهذه العظمة المزدوجة قالوا: «بدأت الكتابة بعبد الحميد،

وختمت بابن العميد»، والناس بعدُ قلّدوا هذا الأسلوب، وعدوه المثل الذي يحتذى.

ومهما يكن؛ فقد كان ابن العميد مصدر خير على الحركة الأدبية، فكان كريمًا يغدق على الأدباء والشعراء، ويقترح موضوعات الأدب عليهم، وينافس بينهم، ويجزل العطاء لمن أحسن منهم، فيجتمع في مجلسه بالريّ أبو الحسين بن فارس، وأبو عبد الله الطبري، وأبو الحسن البديهي، ويعرض في المجلس أترجة حسنة، فيعرض عليهم ابن العميد أن يتباروا في وصفها، ويشترك معهم في ذلك، وهكذا.

ويقصد المتنبي، وابن نباتة السعدي، وغيرهما من الشعراء بمدائحهم.

وينشئ مكتبة عظيمة كانت أعز شيء عليه، يجعل عليها قيِّمًا عالمًا كبيرًا هو مسكويه.

كذلك كان الصاحب بن عباد، نصر الاعتزال، وقرّب إليه المعتزلة؛ إذ كان معتزليًا، ومن شعره.

تعرفــــت بالعـــــدل في مـــــذهبي ودان بحـــسن جـــــدالي العـــراق

فكُلّفــــت في الحــــب مــــا لم أطـــق فقلـــت بتكليـــف مـــا لا يطـــاق

وكان يكتب إلى البلاد التابعة له يدعو فيها إلى الاعتزال.

هذه ناحية؛ وناحيته الأخرى الناحية الأدبية، وكان عرى طريقة أستاذه ابن العميد في أسلوبه، وفي كرمه وإغداقه على الأدباء، فاجتمع له من الشعراء أبو الحسن السَّلاَمي، والبديهي، وأبو سعيد الرستمي. وأبي حسن الجوهري، وابن القاشاني الخ؛ وكذلك يقترح عليهم ما يعرض من موضوعات، فيغنم في موقعة حربية فيلًا

فيجمع الشعراء ويطلب إليهم أن يقولوا القصائد في وصفه على وزن وقافية عمرو بن معديكرب:

أعـــددت للحَـــدْثان ســـا بغـــة وعَـــدّاء عَلَنـــدى

فيكون من ذلك شعر كثير في الفيل، كما يقترح بعض الموضوعات الهزلية؛ فقد مات برذون أبي عيسى بن المنجم، فاقترح على الشعراء القول فيها، فكان من ذلك مجموعة سميت البرذونيات(١).

واشتهر في هذه البلاد من علماء اللغة والنحو أبو الحسين أحمد بن فارس الرازي، كان إمامًا في اللغة، وله كتاب «المحمل»، وكتاب «حلية الفقهاء»، وله مسائل في اللغة تغايى بها الفقهاء (كألغاز)، ومنها اقتبس الحريري أسلوبه فيما وضع من المسائل الفقهية في المقامة الطيبية(٢)، وأقام مدة بالريّ، ومدة بهمذان، وهو أستاذ بديع الزمان، ومات الريّ سنة ٣٩٠هـ، وكان من رجالات ابن العميد. وقد وصل إلينا من كتبه كتاب «الصاحبي»، نسبة إلى الصاحب بن عباد، وهو كتاب يحتوي بحوثًا قيّمة في أصل اللغة العربية وخصائصها، واختلاف لغاتها باختلاف القبائل إلى غير ذلك.

كما كان من رجال البلاغة والأدب في هذا الإقليم أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، أصله من جرجان، وطوّف في صباه في كثير من البلاد، واقتبس العلوم والأداب؛ قال فيه الثعالبي: «هو حسنة جُرجان، وفرد الزمان... يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري». وبعد أن طوف في بلاد العراق والشام وغيرهما

(١) انظر البرذونيات والفيليات في يتيمة الدهر: ٣/ ٥٥، وانظر كتابي ابن العميد، وابن عباد لخليل بك مردم.

(٢) وفيات الأعيان: ١/ ٤٩.

يأخذ من علوم أهلها نزل في ساحة الصاحب ابن عباد، فقلده قضاء جرجان، ثم قضاء الريّ، فلم يزل قاضي الريّ حتى مات.

ولما أعرض الصاحب بن عباد عن المتنبي لأنه أبى أن يمدحه كما مدح عضد الدولة وابن العميد، وعمل الصاحب رسالته في إظهار مساوئ المتنبي، ألّف أبو الحسن الجرجاني هذا كتاب الوساطة بين المتنبي وخصوصمه، كان فيه قاضيًا عادلًا، وأديبًا فاضلًا، وناقدًا بارعًا.

ومن أكبر حسنات علي بن عبد العزيز هذا تلميذه ومواطنه عبد القاهر الجرجاني صاحب كتاب «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة»، وهو مؤسس علم البلاغة في هذه الكتابين على نمط لم يعرف قبله. وقد استفاد من أستاذه علي بن عبد العزيز قوة الأسلوب وجوالته، وبصره بضروب النقد؛ قال ياقوت: «وكان (عبد القاهر) إذا ذَكر أستاذه في كتبه تبخبخ به، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه».

وكذلك كان من هذا الإقليم أبو هلال العسكري (نسبة إلى عسكر مُكْرَم) وهي بلد من بلاد (خوزستان) قريبة من أصفهان. وقد أُخذ عنه العلم في الريّ حينًا وفي الأهواز حينًا وفي العسكر حينًا؛ وله التآليف القيّمة: ككتاب «الصناعتين»، و«ديوان المعاني». و«جمهرة الأمثال»، و«الأوائل»، و«التفضيل بن بلاغة العرب والعجم» الخ، مات نحو سنة ٣٩٥هـ.

وعلى الجملة فقد خدمتن الدولة البويهية العلم والأدب خدمة كبرى، ومع أنهم فرس الأصل وأكثر وزرائهم كابن العميد وابن عباد من الفرس، فقد كانوا يتعصبّون في العلم والأدب للسان العربي.

وكان كثير من البويهيين أدباء مثقّفين ثقافة واسعة، أشهرهم في ذلك عضد

الدولة؛ فكان يشارك في عدة فنون منها الأدب، وكذلك عز الدولة أبو منصور بختيار، وتاج الدولة ابن عضد الدولة، ولهم أشعار أورد بعضها الثعالبي في اليتيمة. ثم نجد ظاهرة في هذه الدولة واضحة، وهي أن أساس الاختيار للوزارة كان عماده شيئين: القدرة الإدزاكية، والقدرة البلاغية؛ فكان الوزراء فحول أدب أيضًا، فكان من أهر وزراء هذه الدولة ابن العميد، وابن عباد، والوزير المهلّبي، وسابور بن أردشير، وابن سعدان، وكل من هؤلاء كان عمادًا عظيمًا للأدب والأدباء والعلماء؛ وكانت لهم مجالس تموج بالعلم والأدب؛ فابن العميد وابن عباد قد رأينا أدبهما ومجالسهما ومن كان يحتّف بهما من العلماء والأدباء.

والوزير المهلّبي كان وزيرًا لمعزّ الدولة وهو من نسل المهلّب بن أبي صفرة، «وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر وعلوّ الهمّة وفيض الكفّ على ما هو مشهور به، وكان غاية في الأدب والمحبة لأهله»[1]، وله مجالس تروى في كتب الأدب فيها الشراب وفيها الشعر وفيها التفنّن في الأناقة والترف، وحسبه فخرًا أن كان من رجاله أبو الفرج الأصفهاني صاحب «الأغاني»، والقاضي التنوخي.

وابن سعدان وزير صمصام الدولة، كان له مجلس يجمع ابن زرعة الفيلسوف ومسكويه صاحب «تهذيب الأخلاق»، وأبا الوفاء المهندس الرياضي الكبير، وابن حجاج الشاعر الماجن، وأبا حيان التوحيدي، الذي كان له من السمر مع هذا الوزير ما جمعه في كتابه «الإمتاع والمؤانسة»، وله ألّف رسالة «الصداقة والصديق» - وكان ابن سعدان يباهي بمجلسه هذا ويفخر به على مجالس الكبراء الآخرين، أمثال المهلبي وابن العميد وابن عباد، فيقول في أصحابه هؤلاء: «مات لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير... وإن جميع ندماء المهلّبي لا يفون بواحد منهم، وإن جميع

(١) ابن خلكان: ١/ ٢٠٠.

أصحاب ابن العميد يشتهون أقل مَن فيهم، وإن ابن عباد ليس عنده إلى أصحاب الجدل»؛ ومن هذا ترى أن هؤلاء الوزراء كانوا يتنافسون في اختيار خيرة العلماء والأدباء ليكونوا حولهم - وحسبنا ما في كتاب «الإمتاع والمؤانسة»، لنعرف منه مقدار ثقافة الوزراء وما يشغلهم من مسائل العلم والأدب.

وسابور بن أردشير كان وزيرًا لبهاء الدولة بن عضد الدولة، فكان هو نفسه أديبًا شاعرًا، وقصده الشعراء أمثال أبي الفرج البغاء، وأبي إسحاق الصابي؛ وقد أنشأ ببغداد دار كتب قيّمة، قال فيها ياقوت: «لم يكن في الدنيا أحسن كتبًا منها، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولها المحررة؛ وهذه الدار هي التي أشار إليها أبو العلاء المعري بقوله في قصيدته:

وغنّت لنا في دار سابور قينة ... من الورق مطراب الأصائل مهياب

ففضل البويهيين ملوكهم ووزرائهم على الحركة العلمية والأدبية لا يقدر، لولا أن ما كان بين بعضهم وبعض من خصومات وحروب قسم العلماء والأدباء كذلك، والتجأ كل فريق إلى رئيس، فكان إذا انهزم نكل الغالب باتباع المغلوب، فلقي كثير من أهل الفضل والأدب من المصادرة والتعذيب والقتل ما يطول ذكره.

* * *

وكان على حدود الدولة البويهية في فارس الدولة الزيارية، أول ملوكها مردويج بن زيّار، ملكت جرجان وطبرستان، وكانت في خصومة مع البويهيين. واشتهر من رجالها في خدمة الأدب أمير كان كابن العميد وابن عبّاد في أنه أديب كبير، ومثقف واسع الثقافة، ومشجّع بمنصبه وجاهه للعلماء والأدباء، وهو الأمير قابوس بن وَشْمَكِير؛ وكان أميرًا كبيرًا أبوه وشمكير، وعمه مرداويج كانا ملوك الريّ وأصبهان قبل بني بويه، ثم كان قابوس واليصا على جرجان وطبرستان، وأنفذ إليه الخليفة

الطائع العهد، ولقَّبه شمس المعالي، وكان جبارًا قويًا يسرف في القتل ويتجاوز الحد، سفاكًا للدماء وخاصةً في حاشيته وجنوده، فكان لا يسمع شكوى في أحد منهم إلا قتله. فملوه وعزلوه، ومع هذا كان يحب العلماء والأدباء ويشجعهم، وكان فيه فضيلة لم نسمع مثلها من ملوك عصره وأمرائه، وهو أنه لم يكن يجيز إنشاد المدائح في وجهه وبين يديه؛ فكان يجتمع الشعراء على بابه في النيروز والمهرجان، فكان يقول بأبي الليث الطبري: «وزّع عليهم الهدايا بحسب رتبهم، لكني لا أستطيع سماع أكاذيبهم التي أعرف من نفسي خلافها»[1].

وقد طبع في مصر «كمال البلاغة» وهي جملة رسائل أدبية له، وهو فيها متأنّق كل كلمة فيها توزن قبل أن توضع، وكل جملة تقاس بالقياس الدقيق لتكون لفق أختها، وروحه عندي أقرب إلى روح بديع الزمان منها إلى ابن العميد وابن عباد، وله المقطعات الشعرية الرقيقة كقوله:

خطرات ذكرك تستثير صبابتي ... فأحسّ منها في الفؤاد دبيبا

لا عصو لي إلا وفيه صبابة ... فكأن أعضائي خلقن قلوبا

وألّف رسالة في الاسطرلاب.

وقد مات محصورًا في قلعة، وحمل تابوته إلى جرجان، ودفن في مشهد عظيم كان بناه لنفسه، وذلك سنة ٤٠٣ هـ.

(١) معجم الأدباء: ٦/ ١٤٩.

الباب الثالث
خراسان وما وراء النهر

ازدهرت هذه البلاد في عهد الدولة السامانية التي حكمت من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩هـ، فمدة ملكهم ١٢٨ سنة.

والملوك السامانيون أصلهم فرس من بلخ من أسرة نبيلة تَنتسب إلى بهرام جور. وقد عرف المأمون منزلتهم ونبلهم فاصطنعهم، وكان رأسهم أسد بن سامان. وقد خلّف أسد هذا أربعة أبناء كلهم كانوا في خدمة المأمون وحكامه في هذه البلاد؛ فكان نوح على سمرقند، وأحمد على فرغانة، ويحيى على بلاد الشاش، وإسماعيل على هراة؛ ثم عظم ملكهم حتى امتد من الصحراء الكبرى إلى الخليج الفارسي، ومن حدود الهند إلى العراق، وأهم ملكهم خراسان وما وراء النهر - وقد اشتهرت دولتهم بالعدل والصلاح وتشجيع العلم.

وخراسان كانت تطلق على الإقليم الواسع الذي ينقسم إلى أربعة أرباع: ربع عاصمته نيسابور، وربع عاصمته مرو، وثال عاصمته هراة، ورابع بلخ.

ومن أشهر مدن خراسان نيسابور، وبُوشَنج، وبُسْت، وسجستان، وهراة، ومرو، وسَرَخس، ونسا، وطوس، وأبيورد الخ.

والقسم الثاني من ملك السامانيين ما وراء النهر، أي ما وراء النهر جيجون، وكان هذا الإقليم ينقسم إلى خمسة أقاسم: (١) الصُّغد، وله عاصمتان: بخارى وسمرقند. (٢) وإلى الغرب من الصغد خوارزم المسمّاة اليوم خيوه أو كيوه. (٣) صغانيان. (٤) فرغانة. (٥) الشاش المسمّاة اليوم طشنقد.

ومن أشهر بلاد ما وراء النهر فرغانة، واسبيجان، والشاش، وأشروسنة، وسمرقند، وبخارى، وفاراب، وترمذ، وصغانيان وقاشان؛ ثم خوارزم، وفيها زمخشر والجرجانية.

والمقدسي يسمّى إقليم خراسان وما وراء النهر «إقليم المشرق». وقد رحل إلى هذه البلاد في هذا العهد السامانى، ونحن ننقل بعض ما يهمنا الآن منه. قال: إنه أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء، وهو معدن الخير ومستقر العلم وركن الإسلام المحكم وحصنة الأعظم، ملكه خير الملوك، وجنده خير الجنود، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك. وقد قال محمد بن عبد الله لدعاته: «عليكم بخراسان فإن هناك العَدَدَ الكثير والجَلَد الظاهر، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم تتوزعها النِّحَل ولم يقدح فيها فساد، وهم جند لهم أبدان وأجسام، ومناكب وكواهل، وهامات ولحى وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة»؛ وهم كانوا عدة الانقلاب والثورة على الأمويين، ونقل الخلافة إلى العباسيين.

ويقول المقدسي: قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة «خراسان في غذاء الهواء، وطيب الماء، وصحة التربة، وإحكام الصنعة، وتمام الخِلقة، وجودة السلاح والتجارة والعلم والعفّة والدراية ترس في وجه الترك»؛ وأهل خراسان أشدّ الناس تفقّهًا، وبالحق تمسّكًا - وهم بالخير والشر أعلم، وغلى إقليم العرب ورسموهم أقرب. وإقليمهم أكثر أجلّة وعقلاء، مع العلم الكثير، والحفظ العجيب، والمال المديد، والرأي الرشيد - به مرو التي قامت بها الدنيا، وبلخ وإليها المنتهى، ونيسابور فلا تُنْسى[1].

ثم قال: وهو أكثر الأقاليم علمًا وفقهًا، وللمذكِّرين به صيت عجيب، ولهم

(١) أحسن التقاسيم: ٢٩٤، وما بعدها.

أموال جمّة؛ وبه يهود كثيرة، ونصارى قليلة، وأولاد علي رضي الله عنه فيه على غاية الرفعة، ولا ترى به هاشميًا إلا غريبًا، ومذاهبهم مستقيمة؛ غير أن الخوارج بسجستان ونواحي هراة كثيرة؛ وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة. وللشيعة والكرّامية بها جلبة، والغلبة في الإقليم لأصحاب أبي حنيفة إلا في كورة الشاش، وطوس، ونسا، وأبيورد... فإنهم شفعوية، ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس.

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب في أكثر الأشياء، فللمؤذّنين سرير قدّام المنبر يؤذّنون عليه بتطريب وألحان، ويذكّرون بلا دفاتر[1]... وبنيسابور رسوم حسنة، منها مجالس المظالم في كل يوم أحد وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره، فكل من رفع قصة قُدّم غليه فأنصفه، وحوله القاضي والرئيس والعلماء والأشراف؛ ومجلس الحكم كل اثنين وخميس في مسجد «رجاء» لا ترى في الإسلام مثله.

وألسنتهم مختلفة؛ أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم، وفيه رخاوة؛ وأهل طوس ونسا أحسن لسانًا؛ وفي كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم، ويجهرون فيه؛ ولسان بست أحسن؛ ولسان هراة وحش، تراهم يتكلّفون ويتحاملون؛ ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح الخ.

وبهذا الإقليم عصبيات بين الشيعة والكرّامية، وبين الشافعية والحنفية. وقد يهراق في هذه الصبيات الدماء، ويدخل بينهم السلطان.

والولايات والخطبة في هذا الإقليم كله لآل سامان... وهم من أحسن الملوك سيرة ونظرًا وإجلالًا للعلم وأهله؛ ومن أمثال الناس: «لو أن شجرة خرجت على

(١) أي يعظون من غير قراءة في كتاب.

يل سامات ليبست»، ألا ترى إلى عضد الدولة وتجبّره وتمكّنه، وكمال دولته وفتوة أمره، وخطب له باليمن وبالسند، وفتح عمان، وملك ما ملك، فلما تعرض لآل سامان، وطلب خراسان أهلكه الله، وشتّت جمعه، وفرّق جيوشه... وهم لا يكلّفون تقبيل الأرض لهم، ولهم مجالس عشياتٍ جُمَع شهر رمضان للمناظرة بين يدي السلطان، فيبدأ هو فيسال مسألة ثم يتكلمون عليها... وميلهم إلى مذهب أبي حنيفة، وليس من رسمهم الانبساط إلى الرعية» اهـ.

وقد أخرجت هذه البلاد ما لا يحصى من رجال الحديث والفقه، خدموا العلم خدمة كبرى بجدّهم وصبرهم على البحث ورحلتهم إلى أقاصي البلدان، يأخذون العلم من أهله حيث كان؛ فعلى رأس المحدّثين الإمام البخاري، وهو من بخارى، كما تدلّ عليه نسبته، ورحل إلى الجبال ومدن العراق، والحجاز والشام ومصر يجمع الأحاديث بالأسانيد، ويعنى بالمتن وبالسند، وبرجال الحديث وتاريخهم، ومعرفة درجة الثقة بكل منهم مع الحفظ التام، والدقة العجيبة... يحكي عن نفسه أنه عني بحفظ الحديث وهو في العاشرة؛ فلما بلغ السادسة عشرة أخذ يحفظ كتب الحديث، ويتعرّف رجاله، ثم خرج مع أمه وأخيه إلى مكة ورجعا هما وبقي هو يطلب الحديث من محدثي مكة والمدينة، ثم طوّف في سائر البلدان، واستخلص من كل ما سمع ما صحّ عنده، فاستخرج صحيحه من زهاء ستمائة ألف حديث، وظل يعمل في تأليف صحيحه هذا ست عشرة سنة. وقد نشر الحديث في بقاع الأرض، فعقد مجالسه في البصرة، وبغداد، والريّ وخراسان، وما وراء النهر ونيسابور، وأخذ عنه الألوف. وقد أصابته محنة خلق القرآن فكان يقول إن القرآن غير مخلوق ولكن لفظي به مخلوق، وشنّعوا عليه بذلك بعد أن عاد إلى بلاده، فأُخرج من بخارى إلى خَرْتَنْك (وهي قرية من قرى سمرقند) فمات بها سنة ٢٥٦هـ.

كما أخرجت نيسابور مسلم بن الحجّاج النيسابوري مؤلف الصحيح المنسوب إليه «صحيح مسلم»، وهو كذلك رحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر، وروى عن أهلها، وجمع الحديث واستخرج صحيحه من ثلاثمائة ألف حديث، و«بعض المحدّثين يفضّل صحيحه على صحيح البخاري لما اختصّ به من جمع الطرق، وجودة السياق، والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع ولا رواية بمعنى»[1]. وكان كتابه مصدرًا لحركة كبيرة في الحديث بين النيسابوريين، وانتفع به خلق كثير. ومات سنة ٢٦١هـ بنيسابور. وقد ناصر البخاري في قوله في القرآن، وخاصمهما في ذلك شيخهما المحدّث الكبير أيضًا أبو عبد الله محمد بن يحيى الذهلي النيسابوري؛ فكان يقول بأن القرآن حتى لفظنا له غير مخلوق.

ويطول بنا القول لو عدّدنا أسماء كبار المحدّثين الذين أنجبتهم هذه البلاد؛ فالبخاري ومسلم كانا سببًا في حركة الحديث قوية ظلت تعمل في هذه البلاد أجيالًا، وحسبنا دلالة على كثرة من خرجتهم هذه البلاد أننا نقرأ أسماء المحدثين، فنجد الكثيرين المنسوبين إلى بلاد هذا الإقليم، وخصوصًا نيسابور.

كما أخرجت البلاد كثيرًا ممن بلغوا مبلغ الاجتهاد في الفقه مثل أبي حاتم محمد بن حبان التميمي السمر قندي، إمام كبير له تصانيف كثيرة في الحديث والجرح والتعديل، وطوف في البلاد وقال: «لعلنا أخذنا عن ألف شيخ بين الشاش والإسكندرية. وقد ولي قضاء سمرقند، ورحل إليه الناس لأخذ العلم عنه، وإليه مرجع كثير من المحدّثين في حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل؛ مات سنة ٣٥٤هـ.

وأبو بكر محمد بن المنذر النيسابوري، وكان إمامًا مجتهدًا؛ قال الذهبي: كان على

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر.

نهاية من معرفة الحديث والأخلاق، وكان مجتهدًا تلا يقلد أحدًا؛ توفي سنة ٣١٦هـ.

ثم كان بهذه الأقاليم كثير من عظماء الشافعية والحنفية.

فمن أكبر رجال الشافعية محمد علي القفّال الشاشي، كان يعدّ إمام عصره فيما وراء النهر، وناشر مذهب الشافعية فيه، وكان يقول بالاعتزال، وله كتب في الفقه والأصول، وخرج غازيًا في الحروب بين المسلمين والروم، وأخذ أسيرًا إلى القسطنطينية؛ ثم عاد إلى بلاده، ومات بالشاش سنة ٣٦٥هـ.

وأبو بكر من فورك الأصفهاني الأصل، الأصولي المتكلّم، ناصر الأشعري، اضطهد بالريّ لكثرة الاعتزال بها، فطلبه أهل نيسابور، وبنوا له مدرسة يعلم فيها، وألّف مصنّفات كثيرة نحو المائة، ومات سنة ٤٠٦هـ بنيسابور.

وأبو بكر أحمد بن الحسن البيهقي الحافظ الشافعي، رحل إلى كثير من البلاد، ثم عاد إلى بلده، وأخذ في التصنيف، وأكثر منها حتى قالوا إنها تبلغ نحو ألف جزء، وهو أول من جمع نصوص الإمام الشافعي في عشرة مجلدات. ومن تأليفه السّنن الكبير والسّنن الصغير، ودلائل النبوّة، ومناقب الشافعي، ومناقب ابن حنبل، وطلب إلى نيسابور لنشر العلم بها فأجاب، وتوفّي بها سنة ٤٥٨هـ، ونسبته إلى بيهق بالقرب من نيسابور.

كما اشتهر من الحنفية الإمام أبو منصور الماتريدي، وهو للحنفية في علم الكلام كالأشعري للشافعين، كتب كتاب التوحيد، وأوهام المعتزلة، ومآخذ الشرائع في الفقه، والجدل في أصول الفقه وغير ذلك؛ مات سنة ٣٣٣هـ، والنسبة إلى ما تريد أو ماتوريد محلة بسمرقند.

ثم أبو الليث نصر بن محمد السمرقندي الملقب بإمام الهدى توفّي سنة ٣٧٣هـ.

وهذا نموذج صغير جدًا ما أخرجته هذه البلاد من المحدّثين والفقهاء، فحيثما قرأت في كتب المحدّثين والفقهاء راعتك كثرة ما ترى منهم، ودلالة نسبتهم عليهم كالبلخي، والسرخسي، والخوارزمي، والسمرقندي، والفارابي، والبخاري والترمذي، والصاغاني، والأبيوردي، والقاشاني، والشاشي، والنيسابوري، والمَرْوَزِيّ (نسبته إلى مرو والزاي زائدة كالرازي نسبة إلى الريّ، وبعضهم ينسبها مروروزي نسبة على مرو الروز)، والهَرَوي نسبة إلى هراة، والفرغاني، والزمخشري، والصُّغدي، والبيهقي، والبُسْتي الخ.

وظهر التصوّف في هذه البلاد كما ظهر في مصر، وفي العراق؛ فكان من أولهم في هذا الإقليم شقيق البلخي، قيل إنه أول من تكلم في علم الأحوال بخراسان كان يقول: قرأت القرآن عشرين سنة حتى ميّزت الدنيا من الآخرة، فأصبته في حرفين، وهو قوله تعالى: ﴿وما أوتيتم من شيء فمتاع الحيوة الدنيا وزينتها﴾ ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾، ومات سنة ١٥٣هـ.

ثم تتابع التصوّف من بعده من هذه البلاد كأبي حفص عمر بن سالم الحداد النيسابوري المتوفّى سنة ٢٧٠هـ؛ وأبو تراب النخشبي من متصوفة خراسان المشهورين بالعلم والنفتوّة والزهد؛ وأبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق أصله من ترمذ وأقام ببلخ؛ وأبو عبد الله محمد بن منازل النيسابوري شيخ طريقة الملامتية مات بنيسابور سنة ٣٢٩هـ؛ وأبو العباس بن القاسم بن مهدي من أهل مرو، وهو أول من تكلم عندهم في حقائق الأحوال، مات سنة ٣٤٢هـ.

وكانت في هذه البلاد حركة فلسفية قوية يرجع الفضل فيها أولًا إلى شخصيتين

من أقوى الشخصيات، وهما أبو زيد البلخي، وأبو القاسم الكعبي.

فأما أبو زيد فهو أحمد بن سهل البلخي، جمع بين الفلسفة والعلوم الشرعية والأدب؛ قال أبو حيان التوحيدي: «الذي أقوله وأعتقده أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنّفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم، أحدهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ... والثاني أبو حنيفة الدينوري، فإنه من نوادر الرجال، جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب، له في كل فن ساق وقدم، ورواء وحكم... والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخي، فإنه لم يتقدم له شبيه في الأعصر الأول، ولا يظن أنه يوجد له نظير في مستأنف الدهر، ومن تصفّح كلامه في كتاب أقسام العلوم، وفي كتاب أخلاق الأمم، وفي كتاب نظم القرآن، وكتاب اختيار السيرة، وفي رسائله على إخوانه، وجوابه عما يُسأل عنه ويُبْدَهُ به عَلِمَ أنه بحر البحور، وأنه عالم العلماء، وما رُئي في الناس من جميع بين الحكمة والشريعة سواه، وإن القول فيه لكثير»[1].

ولد ببلخ، ورحل إلى العراق، وأقام به ثمان سنين يأخذ علمه وفلسفته؛ ثم عاد إلى بلاده ينشر فيها علمه، وكان يقال له: «جاحظ خراسان» - وألّف نحو ستين كتابًا في علوم مختلفة منها كتاب في نظم القرآن؛ قال أبو حيان: «لم أر كتابًا في القرآن أحسن منه - تكلم فيه بكلام لطيف دقيق، وأخرج أسراره، ولم يأتِ على جميع المعاني فيه». وكان بتنزّه عن الجدل في القرآن، ويتحرج عن تفضيل بعض الصحابة على بعض، وعن المفاخرة بين العرب والعجم، ويقول: ليس ي هذه المناظرات الثلاث ما يجدي طائلًا ومن تآليفه كتاب «أقسام العلوم»، و«شرائع الأديان»، و«كتاب السياسة الكبير

(١) معجم الأدباء: ١/ ١٢٥.

والصغير»، و«حدود الفلسفة»، و«ما يصحّ من أحكام النجوم»، وكتاب «الرد على عبده الأوثان»، وكتاب «أخلاق الأمم» الخ. ويعدّ أيضًا من أكبر جغرافيي العرب، وقد ألّف «صور الأقاليم»، وهو خرائط ملوّنة موضّحة ببعض الشروح. وينسب إليه كتاب «البدء والتاريخ» المطبوع وليس له - مات ببلخ سنة ٣٢٢هـ.

والثاني أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبي كان من بلخ أيضًا، وكان معاصرًا لأبي زيد وصديقًا له، واشتهر بتبحّره في علم الكلام، وأنه رأس من رؤوس المعتزلة، له مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية، مات سنة ٣١٧هـ.

هذان العَلَمان نشرا في هذا الإقليم حركة فلسفية وعقلية كبيرة تُوّجت بالفيلسوف الكبير ابن سينا درّة الدولة السامانية.

وهو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، ولعلّ خير ما يمثّ الحركة الفلسفية في العهد السامانى ما حكاه ابن سينا نفسه في ترجمة حياته، كما رواه عنه تلميذه أبو عبيد الجوزجاني؛ قال ابن سينا: «إن أبي كان رجلًا من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخاري في أيام نوح بن منصور «الساماني»، واشتغل بالتصرّف وتولّى العمل بقرية هناك... ثم انتقلنا إلى بخارى، وأُحضرت معلم القرآن، ومعلم الأدب... وكان أبي ممن أجاب داعي المصريين (الفاطميين)، ويعُدّ من الإسماعيلية، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذي يقولونه، وكذلك أخي، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه، ولا تقبله نفسي، وابتدؤوا يدعونني إليه أيضًا، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهيئة، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه... ثم جاء إلى بخاري أبو عبد الله الناتلي، وكان يدعى المتفلسف، وأنزله أبي دارنا رجاء تعلّمي منه... فابتدأت بكتاب إيساغوجي على الناتلي... وكان أي مسألة قالها لي أتوّرها خيرًا منه... ثم أخذت أقرأ الكتب على

نفسي، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق، وكذلك كتاب أقليدس، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه، ثم تولّيت بنفسي حلّ بقية الكتاب بأسره؛ ثم انتقلت إلى المجسطي... ثم فارقني الناتلي، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعي والإلهي، وصارت أبواب العلم تتفتّح عليّ. ثم رغبت في علم الطب... وتعهّدت المرضى، فانفتح عليّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه... وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة (لأرسطو)، فما كنت أفهم ما فيه، وأيست من نفسي حتى أعدت قراءته أربعين مرة، وصار لي محفوظًا، وقلت: هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه، وإذا أنا في يوم من الأيام في الوراقين، وبيد دلاّل مجلد، فقال لي اشتر مني هذا فإنه رخيص... فاشتريته بثلاثة دراهم، فإذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة، ورجعت إلى بيتي، وأسرعت قراءته فانفتح عليّ في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان محفوظًا على ظهر القلب... وكان سلطان بخارى في ذلك الوقت نوح بن منصور (الساماني)، واتفق له مرض، فاستدعيت لمشاركة الأطباء في معالجته، وتوسمت بخدمته، فسألته يومًا الإذن لي في دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب، فأذن لي؛ فدخلت دارًا ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب، منضّدة بعضها على بعض، في بيت منها كتب العربية والشرع، وفي آخر الفقه، وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد، فطالعت فهرست كتب الأوائل، وطلبت ما احتجت إليه منها، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قطّ، وما كنت رايته من قبل، ولا رأيته أيضًا من بعد، فقرأت تلك الكتب، وظفرت بفوائدها، وعرفت مرتبة كل رجل في علمه» الخ الخ[1].

(١) طبقات الأطباء: ٢/ ٢.

وقد شاهد ابن سينا سقوط بخارى في يد أمير غزنة محمود بن سبكتكين، وسافر على الريّ وهمذان.

واتصل بكثير من علماء وقته كالبيروني، وأبي الخير بن الخمار، وأبي القاسم الكرماني، وأخذ اسمه وتآليفه شهرة ومكانة لم ينلها أحد غيره من فلاسفة الشرق؛ وظلّ كتابه «القانون في الطب» يدرس في الشرق وفي الغرب على عهد قريب؛ وكتبه الشفاء والإشارات والنجاة مرجع كل من درس الفلسفة الإسلامية - عاش ابن سينا من سنة ٣٧٠هـ إلى سنة ٤٣٨هـ.

وكان في هذا الإقليم حركة أدبية قوية من شعر ونثر فني.

ففي الشعر جروا على أساليب العراق وفارس من إكثارهم من المقطوعات في الملوك السامانيون الحركة الأدبية، كما شجعها وزيران كبيران لهذه الدولة، فكانا صورة مصغّرة لابن العميد، وابن عباد، وهما: الوزير البلعمي، وأبو عبد الله الجَيْهاني.

فالوزير البلعمي هو أبو الفضل محمد بن عبد الله البلعمي، أصل أجداده عرب من تميم استوطن فرعهم في بخارى، وكان وزيرًا لنصر بن أحمد الساماني؛ قال السمعاني: «وكان واحد عصره في العقل والرأي وإجلال العلم وأهله - ولقبه ابن حوقل بالشيخ الجليل. وقد قام بترجمة تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية.

والجيهاني هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهاني؛ قال فيه ياقوت: «وكان أديبًا فاضلًا شهمًا جسورًا، وكان حسن النظر لمن أمله وقصده - معينًا لمن أمله واعتمده؛ وله تيليف؛ وقد استوزر أيضًا لنصر بن أحمد.

فكلاهما شجّع الحركة العلمية والأدبية في بخارى، كما شجّعها ابن العميد وابن عباد في الريّ.

وقد نبغ في الدولة السامانية من الشعراء كثيرون عدهم الثعالبي في «اليتيمة»، ونقل طرفًا من أشعارهم؛ ولعلّ من أحقّهم بالذكر محمد بن موسى الحدادي البلخي، وكان يقال: «أخرجت بلخ أربعة: أبا القاسم الكعبي في علم الكلام؛ وأبا زيد البلخي في البلاغة والتأليف؛ وسهل بن الحسن في شعر الفارسية؛ ومحمد بن موسى في شعر العربية[1]»، ومما امتاز به أنه كان مولعًا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية نظمًا، وله في ذلك مزدوجة طويلة كقوله:

من مُثُل الفرس ذوي الأبصار ... الثوب رهن في يد القَصّار

* * *

نال الحمار بالسقوط في الوَحَل ... ما كان يهوى ونجا من العمل

* * *

البحر غمر الماء في العِيَان ... والكلب يَرْوَى منه باللسان الخ

وسار في ذلك على منهجه أبو عبد الله الضرير الأبيوردي. وقد وضع قصيدة في أمثال الفرس كذلك أوّلها:

صيامي إذا أفطرت بالسحت ضَلّةٌ ... وعلمي إذا لم يُجْدِ ضرب من الجهل

وتزكيتي مالًا جمعت من الرِّبا ... رياء، وبعض الجود أخزى من البخل

كسارقة الرمان من كَرْم جارها ... تعود به المرضى وتطمع في الفضل

وقد قال الثعالبي: «كانت بخارى في الدولة السامانية مثابة المجد، وكعبة الملك،

---

(١) اليتيمة: ٣/ ٢١.

ومجمع أفراد الزمان، ومطلع نجوم أدباء الأرض، وموسم فضلاء الدهر»[١].

وأنتج هذا الإقليم من أعلام النثر الأديبين الكبيرين الشهيرين أبا بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني.

فالخوارزمي محمد بن العباس أصله من خوارزم، وطوّف في الشام، ونزل ضيفًا على سيف الدولة في حلب، وعلى الصاحب بن عباد في الريّ؛ ثم عاد إلى نيسابور.

وكان يتعصّب لبني بويه، ويغضّ من سلطان خراسان، ونكل به مرة من أجل ذلك، ثم علت منزلته ثانية، ونظر إليه أهل نيسابور بعين الإكرام والإعظام، وعُدَّ إمام الأدباء حتى رُمي ببديع الزمان الهمذاني، وبُلي بمساجلته، وأعان البديع شبابه ولباقته، ومساعدة خصوم الخوارزمي السياسيين للبديع، «فانخزل الخوارزمي انخزالًا شديدًا، وكسف باله، وانخفض طرفه، ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره، ومات سنة ٣٨٣هـ»[٢].

وقد خلّف لنا رسائله الأدبية القيّمة، على ما فيها من تكلف أحيانًا جرّ إليه الغرام بالسجع والبديع.

ثم أتى بديع الزمان الهمذاني، وهو أبو الفضل أحمد بن الحسن، ولد بهمذان، وتوفي بهراة سنة ٣٩٨هـ، وقد أربى على الأربعين. قد اتصل بالأمير محمد بن منصور فأكرمه، ونزل نيسابور سنة ٣٨٢هـ، فأملى بها مقاماته المشهورة، وكانت الخصومة بينه وبين أبي بكر الخوارزمي أيام إقامتهما في نيسابور. وقد قصّ البديع هذه الخصومة في رسائله، ولا بد أن يكون قد بالغ فيها تحيّزًا لنفسه، ومع هذا فهي تدلّ على ما

(١) يتيمة: ٣/ ٣٣.

(٢) اليتيمة: ١٢٧.

عرف عن البديع من جودة حفظ، وحضور بديهة، وقوة بيان.

وله الفضل الكبير في مقاماته التي حذا حذوها الحريري فيما بعد، وله رسائله، وهذه وتلك تدل على خفة روح وحسن خيال، وقدرة على الابتكار، ووقوف على أحوال الزمان مما يجعلها مصدرًا كبيرًا لدراسة الحياة الاجتماعية في زمنه.

ونبغ في هذا العصر، وفي هذا الإقليم من الأدباء والمؤلِّفين في الأدب أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري، كان أديبًا بليغًا على أسلوب أهل زمانه في السجع والاستعارة والتشبيه، وكان واسع العلم باللغة والأدب والأدباء وتاريخهم، وألَّف في ذلك كله؛ فله «فقه اللغة» أراد فيه أن يجعله معجمًا على نمط جديد، وهو جمع الكلمات في الموضوع الواحد في موضع واحد، وأتتْ هذه الفكرة للثعالبي في نيسابور، وابن سِيده في الأندلس في وقت واحد تقريبًا؛ فقد مات الثعالبي سنة ٤٢٩هـ، ومات ابن سيده سنة ٤٥٨هـ، وألَّف الأول «فقه اللغة»، والثاني «المخصص». كما ألَّف الثعالبي «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»، ذكر فيه تراجم الأدباء في المائة الرابعة، ومختارًا من أدبهم مقسمًا إلى الدول المختلفة، والأمصار المتباينة؛ وقد عني بالمختارات أكثر مما عني بتراجم الحياة.

وله كتب أخرى كثيرة قيمة وصلت إلينا «كالإعجاز والإيجاز»، و«خاص الخاص»، و«ثمار القلوب في المضاف والمنسوب»، و«من غاب عنه المطرب»، و«نثر النظم»، و«حل العقد» إلخ. وله كتاب «غرر أخبار ملوك الفرس». وكلها كتب قيمة مفيدة.

كما كان من هذه البلاد من أئمة اللغة؛ الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد الأزهر، أصله من هراة، ولد بها ومات بها، ورحل إلى العراق وأخذ عنه أئمة علمائه

كابن دريد وطاف في أرض العرب يجمع اللغة منهم، فوقع أسيرًا في يد القرامطة، قال: «وكان القوم الذين وقعت في سهمهم عربًا نشئوا في البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع، ويرجعون إلى إعداد المياه في محاضرهم زمان القيظ، ويرعون ويعيشون بألبانها، ويتكلمون بطباعهم البدوية، ولا يكاد يوجد في منطقهم لحن أو خطأ فاحش، فبقيت في أسرهم دهرًا طويلًا... واستفدت من مجاورتهم ومخاطبة بعضهم بعضًا ألفاظًا جمَّة ونوادر كثيرة أودعت أكثرها في كتابي».

وقد صنَّف في اللغة كتاب «التهذيب» في عشرة مجلدات، وهو من الكتب التي فرَّغها ابن منظور في كتابه «لسان العرب» وقال في مقدمته: «ولم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري، ولا أكمل من المحكم لابن سيده، وهما من أُمَّهات كتب اللغة على التحقيق، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيَّات للطريق».

وقد توفي الأزهري سنة ٣٧٠هـ.

وكذلك الجوهري صاحب «الصحاح»، ومبتكر طريقة للمعاجم جرى عليها صاحب «القاموس» و«لسان العرب» وغيرهما. وهو إسماعيل بن حماد، أصله من فاراب، سافر إلى بلاد العرب، ودخل ديار ربيعة ومضر، وجمع ما استطاع من اللغة، وعاد إلى نيسابور فدرس فيها؛ ثم وضع كتاب «الصحاح»، وهو يعد من أمهات كتب اللغة اهتمَّ به علماء اللغة اهتمامًا كبيرًا استفادةً ونقدًا؛ وقد تقدم ذكره. مات سنة ٣٩٨هـ.

ومن هذا الإقليم من علماء اللغة والأدب الزُّوزَني[1] أبو عمرو أحمد بن محمد بن

(١) قال ياقوت: إنها بضمِّ الأول وقد يفتح، واعتمدنا في نسب هذا المؤلف وتاريخ وفاته على «الأنساب» للسمعاني، وهو يخالف ما في ترجمته في صدر شرحه للمعلقات.

إبراهيم نسبة إلى زُوزَن، وهي بلدة واسعة بين نيسابور وهَرَاة، وكانت زوزن تسمى بالبصرة الصغرى لكثرة من أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم، وإليها ينتسب كثير من أهل الأدب والعلم، منهم صاحبنا هذا.

وقد خلَّف لنا شرحًا على المعلقات السبع، وهو شرح مختصر مفيد يدل على سعة علمٍ باللغة والنحو والتصريف وحسن الذوق والفهم، مات بزوزَن سنة ٣٧٤هـ.

وكان في هذا الإقليم أمراء جمعوا إلى الإمارة وجاهة الأدب، ورعاية أهله، فأحاطوا أنفسهم بجو أدبي رائع، كان ينتج أكثر مما أنتج لولا ما انغمسوا فيه من السياسة وفتنها وألاعيبها.

فكان فيه طائفة كبيرة من نسل الخلفاء العباسيين أتوا إليه من العراق لما كان يعرفون من الرابطة القوية بين آبائهم العباسيين والخراسانيين؛ إذ كان الخراسانيون عماد الدولة العباسية. فلما ذهب إلى خراسان أبناء هؤلاء الخلفاء أكرمهم الخراسانيون وأغدقوا عليهم النعم، وأحلوهم محلَّ الإجلال، ولعبت ببعض هؤلاء الذين من نسل الخلفاء فكرة أن يعيدوا الأمر جذعة، فيبثوا الدعوة لأنفسهم، ويكوِّنوا جيشًا من الخراسانيين يفتحون به العراق من جديد ويؤسِّسون ملكًا جديدًا، وأصاب بعضهم بعض النجاح أولًا وفشلوا أخيرًا.

وكان من أشهر هؤلاء أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأموني من نسل المأمون، قال الثعالبي: «وقد رأيت المأموني ببخارى سنة ٣٨٢هـ، وعاشرت منه فاضلًا ملء ثوبه، وذاكرت أديبًا شاعرًا بحقِّه وصدقه، وسمعت منه قطعة من شعره، ونقلت أكثره من خطه، وكان يسمو بهمته إلى الخلافة، ويمنِّي نفسه قصد بغداد في جيوش تنضم إليه من خراسان لفتحها، فاقتطعته المنية دون الأمنية، ولم

يكن بلغ الأربعين، وذلك سنة ٣٨٣هـ»[١]. .

وكذلك كان أبو محمد عبد الله بن عثمان الواثقي من أولاد الخليفة الواثق، ذهب كذلك بأهله إلى خراسان، ودبَّر أن يستعين بالأتراك لإزالة دولة بني سامان حتى هاجموا بخارى وأزالوا الساماني عنها، ثم فشلت الحركة، وكان كالمأموني شاعرًا أديبًا.

ومن الأمراء غير العباسيين الذي كانوا من الأدباء آل ميكال الذين اشتهر من بينهم أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالي، وأبو محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالي. وآل ميكال أسرة كبيرة من سادة خراسان، وأولي الفضل والنبل والرياسة فيها، جمعوا إلى إنشاء الأدب حماية الأدب.

هؤلاء الأمراء الأدباء من نسل العباسيين وغيرهم بهذا الإقليم شجَّعوا حركة أدبية عظيمة بما بذلوا من مال، وما وجَّهوا من رأي، وما ضربوا المثل بما أنشئوا من أدب، فقصدهم المؤلِّفون يهدون إليهم تآليفهم وقصائدهم؛ فيقصد ابن دريد -مثلًا- أبا الفضل الميكالي في نيسابور، ويؤلف له كتاب «الجمهرة»، وينشئ له قصيدته المقصورة -يا ظبية أشبه شيء بالمها- والتي يقول فيها في مدح آل ميكال:

إن ابن ميكال الأميرَ انتاشني ... من بعد ما قد كنت كالشيء اللقَا

ويقول في ابني ميكال بعد أن ذكر العراق وأهله، وأنه لا يدانيهم في فضلهم أحد:

حاشا الأميرين اللذين أوفدا ... عليَّ ظلًّا من نعيم قد ضفا

هما اللذان أثبتا لي أملًا ... قد وقف اليأس به على شَفا

(١) اليتيمة: ٣/ ٩٤.

تلافيا العيش الذي رنّقه ... صرف الزمان فاستساغ وصَفا
وأجريا ماء الحيا لي رغدًا ... فاهتزّ غصني بعد ما كان ذَوى
هما اللذان سموا بناظري ... من بعد إغضائي على لذع القذى
هما اللذان عمرا لي جانبًا ... من الرجاء كان قدمًا قد عفا
وقلّداني منه لو قرنت ... بشكر أهل الأرض عني ما وفى

ونرى مثلًا أبا منصور الثعالبي يؤلّف كتابه «لطائف المعارف» للصاحب بن عباد، و«المبهج» لشمس المعالي قابوس بن وشمكير، و«فقه اللغة»، و«سحر البلاغة» لأبي الفضل الميكالي، و«النهاية في الكناية» لمأمون بن مأمون صاحب خوارزم... إلخ.

وعلى الجملة فهاتان الدولتان -البويهية والسامانية- مع فارسية ملوكهما وأعجمية لغاتها الأصلية قد خدمتا اللغة العربية، والأدب العربي، والعلوم الإسلامية العربية، والفلسفة الإسلامية العربية خدمة لا تقدر.

الباب الرابع
السند وأفغانستان

تولَّى هذا الإقليم الدولة الغزنونية، وتُسمى أيضًا دولة بني سُبَكْتِكِين. وقد قامت هذه الدولة من سنة ٣٥١هـ إلى سنة ٥٨٢هـ.

وهي دولة تركية، والنزاع بين الأتراك والفرس قديم، والحرب بينهم سجال؛ فقد ساد الفرس في الدولة العباسية الأولى إلى أن جاء المعتصم فقوِي سلطان الترك، وضعف سلطان الفرس، وظل الحال كذلك حتى أتى بنو بويه، وهم فرس، فاستردوا سلطانهم، وأضعفوا سلطان الترك.

وكذلك الأمر هنا؛ فقد ساد السامانيون الفرس في خراسان وما وراء النهر حتى جاء آل سبكتكين الأتراك، فأنزلوهم عن مكانتهم، وحلوا محلهم في السيادة.

نشأ الأمراء الأولون من الدولة الغزنوية في أحضان الدولة السامانية؛ فقد كان أَلْبْتِكِين مملوكًا تركيًّا حاكمًا لهراة من قِبل السامانيين. وقد فتح غزنة سنة ٣٥٢هـ؛ وقد خلفه ابن إسحاق، وهذا لم يعقب فآل أمر ما بيده إلى غلامه سبكتكين، وإليه تُنسب الدولة. وقد وسَّع سبكتكين ملكه في ناحيتين: في ناحية الهند، وأنشأ بها حكومة في «بشاور»؛ وفي ناحية فارس باستيلائه على خراسان وما إليها. ومن أشهر رجال هذه الدولة -بل من أشهر أعلام الإسلام- محمود بن سبكتكين الذي وطَّد ملكه ووسعه، فوسع فتوحه في الهند إلى ما وراء كشمير وبنجاب، واستولى من ناحية أخرى على بُخارى وما وراء النهر، وأخذ إقليم الريِّ وأصفها من البويهيين إلى العراق، فامتدت مملكته من لاهور إلى سمرقند إلى أصفهان إلى العراق، واستمر المُلك في عقبه إلى أن خلفتها الدولة الغورية.

والذي يهمنا هنا الناحية العقلية؛ فقد كانت هذه البلاد في هذه الدولة مركزًا عقليًّا نبغ فيه كثير من رجال العلم والأدب والفلسفة.

وكان من أهم بلاد هذه الدولة ولاية سِجِسْتان «وعاصمتها زَرَنْج -وفي أهل سجستان عِظَم خلْق وجَلادة، وأغلب أهلها على مذهب الحنفية لا ترى من غيرهم إلا القليل، وكان فيها كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم، ولا يتحاشون منه، ويفتخرون به عند المعاملة؛ يقول الرجل عند مماكسته: «أنا من الخوارج لا تجد عندي إلا الحق»، واشتهر أهل سجستان -على العموم بصحة المعاملة، وقلة المخاتلة، ومسارعتهم إلى إغاثة الملهوف ومداركة الضعيف؛ ثم أمرهم بالمعروف»[1].

وقد ينسب إليها فيقال: السجستاني، وقد تختصر النسبة فيقال: السِّجْزِي. وكثير من العلماء ينسب إليها، منهم أبو سعيد السِّجْزي القاضي الحنفي؛ رحل إلى الشام والعراق وخراسان، ثم عاد إلى بلاده وولي القضاء بعدة نواح، ومات بفرغانة سنة ٣٨٣هـ. وأبو أحمد خلف بن أحمد السجزي كان ملكًا بسجستان، وكان من أهل العلم والفضل والسياسة والملك، سمع الحديث بخراسان والعراق. وقد سَلَب ملكه سنة ٣٩٩هـ محمود بن سبكتكين، وتوفي في الهند محبوسًا.

وكان من أعماله العظيمة أن جمع العلماء بسجستان وحملهم على تصنيف كتاب في التفسير لا يغادرون فيه حرفًا من أقاويل المفسرين وتأويل المتأوِّلين، ونكت المذكِّرين، ويتبعون ذلك بوجوه القرارات وعلل النحو والتصريف، ويوشحونه بما رواه الثقات الأثبات من الحديث. وقد أنفق على العلماء مدة اشتغالهم فيه عشرين ألف دينار، وتمَّ هذا العمل الضخم في مائة مجلد تستغرق عمر الكاتب، وتستنفد

---

(١) المقدسي.

حبر الناسخ[١].

ومن مدن سجستان المشهورة الرُّخَّج، وإليها ينسب كثير من العلماء والأدباء.

ثم من أهم مدن هذه الدولة غزنة، وكانت عاصمة ملكها، وقد ملأها محمود بن سبكتكين بأجل ما وصلت إليه يده عند فتحه للهند. وقد دُفن بها السلطان محمود هذا، ولا يزال بها قبره عليه قبة عظيمة، وأبواب المدفن من خشب الصندل، قيل: إنه أتى بها من أحد هياكل الهند.

وقد وصف العُتْبي بعض ما عمله السلطان محمود في غزنة، فذكر -مثلًا- أنه بنى فيها مسجدًا، وقال: «لما عاد السلطان يمين الدولة إلى دار الملك بغزنة أحب أن ينفق ما أفاء الله عليه في عمل برٍّ يشيع جدواه، وكان قد أوعز باختطاط صعيد من ساحة غزنة للمسجد الجامع، إذ كان ما اختطَّ قديمًا على قدر أهلها، فوافق عَوده حصول المراد من تقطيعه وتوسيعه، وإقامة الجدران على ترابيعه، فصبَّ بدر المال على الصُّنَّاع، كما صبَّ دماء الأبطال يوم القِراع... ونُقل إليه من أقطار الهند والسند جذوع توافقت قدودًا ورصانة، وتناسبت تدويرًا وثخانة. وقد فُرشت ساحتها بالمرمر منقولًا من كل فجٍّ عميق، ومضرب سحيق... أشد ملاسنة من راحة الفتاة وصفحة المرآة. فأما الأصباغ فروضة الربيع ضاحكة الثغور تستوقف الأبصار، وتقيد النظّار. وأما التهيب فهو صبات الذهب الأحمر أفرغت عن صور الأصنام المجذوذة، والبِدَدَة المأخوذة[٢]، فطفقت تعرض على النار بعد أن كانت آلهة للكفَّار... إلخ.

---

(١) انظر: تاريخ العتبي.

(٢) البدة: جمع بدٍّ، وهو الصنم.

وقد أفرد السلطان لخاصته بيتًا في المسجد مشرفًا عليه، فرْشه وإزاره من الرخام، قد أحيط بكل رخامة مربعة محراب من الذهب الأحمر مكلَّلًا باللازورد، في تعاريج من ألوان المنثور والورد.

وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة[1] تسع ثلاثة آلاف غلام، متى شهدوا للفرض أخذوا أماكنهم منها صفوفًا، وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفًا.

وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء، تشتمل بيوتها من مناط الأرض إلى مناط السقوف على تصانيف الأئمة الماضيين، من علوم الأولين والآخرين، منقولة من خزائن الملوك، نقّروا عن ديار العراق، ورباع الآفاق، حتى اقتنوها بخطوط كفرائد سموط، مصححة بشهادات التقييد، وعلامات التخفيف والتشديد، ينتابها فقهاء دار الملك وعلماؤها للتدريس، والنظر في علوم الدين، على كفاية ذوي الحاجة منهم ما يهمهم، جراية وافرة، ومعيشة حاضرة.

وناهيك من بلد يحتوي على مرابض ألف فيل، يَشغل كل منها بساسته ومارَته[2] دارًا كبيرة، وخطة وسيعة، إن الله تعالى إذا أراد عَمَّر البلاد وكثَّر العباد[3]؛ وقال ياقوت: «وقد نسب إلى هذه المدينة من لا يعد ولا يحصى من العلماء»؛ وقال السمعاني: «الغزنوي نسبة إلى غزنة، وهي بلدة من بلاد الهند، خرج منها جماعة من العلماء في كل فن».

ثم أفغانستان، ومن أشهر مدنها قُنْدُهار، وكابُل، وقد نُسب إليها جمع من

---

(١) يريد بالتعاريج الدرابزين.

(٢) ساسة الفيل: خدامه ومن يقومون بأمره. ومارته: جمع مائر، وهو الذي يقوم على طعامه.

(٣) نقلت هذه من تاريخ العتبي باختصار.

المحدِّثين.

ثم السند، وكانوا يطلقونها على البلاد الواقعة بين الهند ومكران وسجستان. وكانت عاصمتها «المنصورة»؛ وقد قال المقدسي في وصف السند عندما زارها: «إنه إقليم الذهب والتجارات والعقاقير والآلات والفانيذ والخيرات... به عدل وإنصاف وسياسات... العلماء به قليلون -والمنصورة قصبتها وهي مثل دمشق، لأهلها مروءة، وللإسلام عندهم طراوة، والعلم وأهله كثير، ولهم ذكاء وفطنة... ومن مدن السند دَيْبُل، وكل أهلها تجار، وكلامهم سندي وعربي -والمُلْتان، وهي مثل المنصورة، وأهلها لا يكذبون في بيع، ولا يبخسون في كيل، يحبون الغرباء، وأكثرهم عرب[1].

ثم قال: إن إقليم السند أكثر أهله مذاهبهم أصحاب حديث، ورأيت القاضي أبا محمد المنصوري دواديًّا إمامًا في مذهبه، وله تدريس وتصانيف، قد صنَّف كتبًا عدة حسنة. وأهل الملتان شيعة، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبي حنيفة، وليس به مالكية ولا معتزلة، ولا عمل للحنابلة؛ قد أراحهم الله من الغلو والعصبية والهرج والفتنة»... إلخ.

ونعود إلى وصف الحركة العلمية والأدبية في هذه البلاد.

كان طبيعيًّا أن تكون الحركة العلمية والأدبية في البلاد الجديدة التي فتحتها الدولة الغزنونية في الهند ضعيفة؛ فقد بدأت تنشر فيها الإسلام والعربية، فليس من الطبيعي أن تخرج علماء -أما القسم الذي استولت عليه من الدولة السامانية وغيرهما مما تأصَّل فيه الإسلام من عهد بعيد، فقد استمرت فيه الحركة في العهد

(١) أحسن التقاسيم: ٤٧٩ وما بعدها.

الغزنوي كما كان في العهد السامانى.

وكان من الغزنويين من شجع الحركة الدينية والعلمية والأدبية تشجيعًا عظيمًا، وخاصة محمود بن سبكتكين؛ فقد سار على أسلوب العصر في أن يزين مملكته بالعلماء والأدباء، كما يزين تاجه باللآلئ.

وقد احتاط به كثير من علماء الدين، وجدَّ أهل المذاهب الدينية والفقهية في كسبه، علمًا منهم بأنه إذا اعتنق مذهبًا ساد في الأقاليم الواسعة التي فتحها؛ فالفاطمية في مصر وجهوا إليه «التاهرتي» الداعي ليدعوه إلى مذهب الفاطمية، فوقف السلطان محمود على سر ما دعا إليه، وعلم بطلان ما نُدب إليه، وأمر بقتل التاهرتي، وأهدى بغلته التي كان يركبها إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزدي شيخ هراة، وقال: كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين[1].

«وذكر إمام الحرمين أبو المعالي الجُوَيْني أن السلطان المذكور كان على مذهب أبي حنيفة، وكان مولعًا بعلم الحديث، وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع، وكان يستفسر الأحاديث، فوجد أكثرها موافقًا لمذهب الشافعي، فوقع في خلده حكمه، فجمع الفقهاء من الفريقين في مرو والتمس منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين على الآخر، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعي، وركعتين على مذهب الإمام أبي حنيفة لينظر فيه السلطان ويتفكر ويختار ما هو أحسنهما، وتولى الإمام القفال المروزي الشافعي ذلك، فتحوَّل السلطان من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي»[2].

---

(١) طبقات الشافعية: ٤/ ١٦.

(٢) انظر الحكاية بطولها في ابن خلكان: ٢/ ١١٦.

ولما فتح إقليم خراسان، وسائر إيران وما وراء النهر وسجستان، وجَّه أدباؤها مديحهم إليه كما كانوا يوجِّهونه إلى السامانيين -فبديع الزمان الهمذاني ينشئ القصائد في مدح محمود بن سبكتكين، كالتي يقول فيها:

تعالى الله ما شاءَ ... وزاد الله إيماني

أأفريدون في التاج ... أم الإسكندر الثاني

أم الرجعة قد عادت ... إلينا بسليمان

أظلَّت شمس محمودٍ ... على أنجم سامان

وأمسى آل بهرام ... عبيدًا لابن خاقان[1]

إذا ما ركب الفيلَ ... لحرب أو لميدان

رأت عيناك سلطانًا ... على منكب شيطان[2]

فمن واسطة الهند ... إلى ساحة جرجان

ومن قاصية السند ... إلى أقصى خراسان

على مقتبل العمر ... وفي مفتتح الشان

فيومًا رسل الشاهِ ... ويومًا رسل الخان[3]

فما يعزب بالغرب ... عن طاعتك اثنان

أيا والي بغدادٍ ... ويا صاحب هَمْدانِ

---

(١) يريد بآل بهرام السامانيين؛ لأنهم يقولون: إنهم من نسل بهرام جور كما تقدَّم. ويريد بابن خاقان السلطان محمودًا؛ لأنه تركي، وخاقان لقب لملك الترك.

(٢) يريد بالشيطان الفيل لشكله الهائل.

(٣) أي: يومًا عنده رسل ملوك العجم، ويومًا عنده رسل الترك.

تأمـــل مـــائتي فيـــلٍ عـــلى ســـبعة أركـــان[1]
يقلـــبن أســـاطين ويلعـــبن بثعبـــان[2]
ويـــأجوج ومـــأجوج مـــن الجنـــد ثموجـــان

وكذلك أنشأ أبو منصور الثعالبي القصائد في مدحه كقوله:

يـا خـاتم الملـك ويـا قَـاهِر الـ ـأملاك بـين الأخـذ والـصفح
عليـك عـين الله مـن فـاتح لـلأرض مـستَوْلٍ عـلى الـنجح
راياتـه تنطـق بالنـصر بـل تكـاد تملأ كتـب الفـتح
فاسـعد بأيامـك واسـتغرق الـ ـأعداء بـالكبح وبالـذبح

إلى كثير غيرهما من الشعراء.

واختص به أديبان كبيران ناثر وشاعر، وأولهما أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندي، وثانيهما كاتبه أبو الفتح البستي.

فالأول «الميمندي»: كان وزير محمود بن سبكتكين، واشتهر بفصاحة العلم، وعلو الهمم، وسعة النظر، وحسن السياسة. وكان الوزير الذي قبله «أبو العباس» قليل البضاعة في الصناعة، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية إلى الفارسية حتى كسدت سوق البيان، وبارتْ بضاعة الإجادة والإحسان، ولما سعدت الوزارة بأبي القاسم رفع ألوية الكتَّاب، وعمَّر أفنية الآداب، فأمر الكتَّاب أن يتحاشوا الفارسية إلا عن ضرورة من جهل من يُكتب إليه، وعجزه عن فهم ما يتعرب به

(١) يريد أركان الجيش، وهي القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة.
(٢) الضمير للفيلة أي: يتنقلن على قوائم كالعمد، ويلعبن بخرطوم كالثعبان.

إليه[١]-فطارت توقيعاته في البلاد ولا شوارد الأمثال، وأبيات المعاني من القصائد الطوال، ففي كل ناد نداء بألحانها، وفي كل مشهد شهادة باستحسانها... إلخ»[٢].

وأمَّا أبو الفتح البستي، فكان كاتب محمود بن سبكتكين وموضع سرِّه، ومستشاره في أمره -وهو أديب كبير له شعر جيد، ونثر جيد؛ فأمَّا شعره فأكثره مقطوعات يعمد فيها إلى المعنى الدقيق، فيصوغه في لفظ رشيق، وأما نثره فواضح جميل فيه السجع والازدواج على طريقة عصره، وهو في نثره يكثر من الأمثال، وفي نظمه يكثر من الحكم. وقد قال الثعالبي: إن له طريقة خاصة به، فهو «صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس، البديع التأسيس، وكان يسميه المتشابه، ويأتي فيه بكل طريقة لطيفة» تتجلَّى هذه الطريقة في أمثاله من مثل قوله: «عادات السأدات، سادات العادات -الخيبة تهتك الهيبة- من كل عبد الحق فهو حرٌّ، المنية تضحك من الأمنية- معنى المعاشرة ترك المعاسرة... إلخ» وله في هذا الباب الشيء الكثير.

كذلك تظهر طريقته في شعره من دقة المعنى وأناقة اللفظ، مثل قوله:

لا يغرنك أنني ليِّن المس ... فغربي إذا انتضيت حسام

أنا كالورد فيه راحة قوم ... ثم فيه لآخرين زكام

وقوله:

وقد يلبس المرء خز الثيا ... ب ومن دونها حالة مُضنية

كمن يكتسي خدُّه حمرة ... وعلتها وَرَمٌ في الرئة

---

(١) أي فهم ما يكتب إليه بالعربية.

(٢) العتبي: ٣/ ١٧٠.

وقوله:

تحمَّل أخاك على ما به ... فما في استقامته مطمع
وأنَّى له خُلُق واحد ... وفيه طبائعه الأربع

ويظهر أن له ثقافة واسعة في علم النجوم استخدمها كثيرًا في شعره.

وعلى الجملة فشعره ونثره يدلان على رقة ذوقه، وسعة ثقافته في فروع من العلم مختلفة، إلى استفادة كبيرة من مزاولته الكتابة للسلاطين والأمراء، واحتكاكه بالأحداث السياسية، والمشاكل الاجتماعية، وأكثر ما يتجلى ذلك في أمثاله وحكمه.

وقد غضب عليه ابن سبكتكين أخيرًا فنفاه إلى بلاد الترك، ومات بها سنة ٤٠٠هـ.

ثم كان مؤرخ الدولة الغزنوية الكبير، وهو أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي. وقد سمى كتابه «اليميني» نسبة إلى لقب محمود بن سبكتكين؛ فقد لقبه الخليفة القادر بالله «يمين الدولة وأمين الملة». وقد ألَّف العتبي كتابه هذا في تاريخ الدولة الغزنوية ترجم فيه لسبكتكين، وكيف أسس مملكته، ثم تاريخ ابنه محمود، والوقائع التي حدثت في أيامه إلخ.

ولا يزال الكتاب يعد أكبر مصدر لتاريخ هذه الدولة. وقد صاغه في أسلوب أدبي مسجوع على نحو ما فعله معاصره أبو منصور الثعالبي؛ ولذلك وقع بين الكتب الأدبية والتاريخية، ولو كان نثرًا مرسلًا لكان أجدى على التاريخ. ومع هذا فقد حاز شهرة كبيرة في عالم الأدب، وخاصة في الأقاليم الفارسية؛ قال السبكي: «وكان أهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب، ويضبطون ألفاظه أشد من

اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري»[1]، وعني بشرحه كثير من الأدباء، وطبع له في مصر شرح للمنيني الدمشقي.

وقد حكى الأستاذ براون في كتابه «التاريخ الأدبي للفرس» أن السلطان محمود علم أن في مجلس مأمون بن مأمون جماعة من رجال العلم والفلسفة منهم ابن سينا والبيروني، وأبو سهل المسيحي، وابن الخمّار، وأبو نصر العَرَّاق، فكتب إليه أن أرسلهم ليشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم، فجمعهم مأمون بن مأمون، وقرأ عليهم كتاب السلطان، فأبى ابن سينا وفرّ، وقبل البيروني، وابن الخمّار، والعَرَّاق»[2].

وكان ذهاب البيروني إليه نعمة لا تقدر، فهو الذي استغل فتوح السلطان محمود في الهند أحسن استغلال علمي وجعل ثروة الهند في الرياضة والفلسفة والإلهيات في يد العرب والفرنج، ولا تزال كتبه التي ألّفها العمدة الصادقة لكل من كتب عن الهند من شرقيين وغربيين؛ وكان البيروني هذا درة في تاج الدولة الغزنوية كابن سينا في الدولة السامانية.

وهو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، نسبة على بيرون مدينة في السند، ولد سنة ٣٦٢هـ، ونبغ في كثير من العلوم، وخاصةً الرياضة والفلك، وأزهر في الأوساط العلمية، وكانت -إذ ذاك- قصور الخلفاء والأمراء ومجالسهم تقوم مقام الجامعات اليوم. وقد عدَّد في إحدى قصائده الذين أكرموه لعلمه، فقال:

مضى أكثر الأيام في ظلّ نعمة ... على رتب فيها علوت كراسيا

فآل عراقٍ قد غنوني بدَرِّهم ... ومنصور منهم قد تولّى غِراسيا

---

(١) طبقات الشافعية: ٤/ ١٣.

(٢) ٢/ ٩٦.

وشمس المعالي كان يرتاد خدمتي ... على نفرة مني وقد كان قاسيا[1]

وأولاد مأمون ومنهم عليُّهم ... تبدي بصنع صار للحال آسيا

وآخرهم مأمون رفَّه حالتي ... ونوَّه باسمي ثم رأس راسيا[2]

ولم ينقبض محمود عني بنعمة ... فأغنى وأقنى مُغْضِيًا عن مكاسِيًا[3]

* * *

أبو الفتح في دنياي مالِك ربقتي ... فهات بذكراه الحميدة كاسيا[4]

فلا زال للدنيا وللدين عامرًا ... ولا زال فيها للغواة مواسيا

ويعده «سخاو» المستشرق الكبير -ناشر كتبه- أكبر عقلية علمية ظهرت، وكذلك رأى محمد بن محمود النيسابوري، إذ قال: «إن له في الرياضيات السبق الذي لم يشق المحْضِرون غباره، ولم يلحق المضمرون المجيدون مضماره».

وفي الحقِّ أنه كان من خير المثال العليا العالم المخلص للعلم، الواهب له حياته، يزهد في المال إلا ما يكفيه حاجته، صنَّف القانون المسعودي للسلطان مسعود؛ فوصله السلطان بأموال طائلة فردَّها بعذر الاستغناء عنها[5].

«ولا يكاد يفارق يده القلم، وعينه النظر، وقلبه الفكر إلا في يومي النيروز والمهرجان من السنة لإعداد ما تمس إليه الحاجة في المعاش»، لا يمل الاستزادة من

---

(١) هو شمس المعالي قابوص بن وشمكير أمير طبرستان؛ وقد تقدم ذكره.

(٢) مأمون وأولاده أمراء خوارزم.

(٣) محمود هو محمود بن سبكتكين.

(٤) أبو الفتح هو أبو الفتح البستيّ، وقد تقدم.

(٥) ياقوت: ٦/ ٣٠٨.

العلم حتى حين يجود بنفسه. دخل عليه الفقيه أبو الحسن الوالوالجي، وهو يجود بنفسه فسأله عن مسألة في توريث ذوي الأرحام؛ فقال له الفقيه -إشفاقًا عليه-: أفي هذه الحالة؟ قال البيروني: أودع الدنيا وأنا عالم بها خير من أن أخليها وأنا جاهل بها! قال الفقيه: فلما خرجت من عنده سمعت الصراخ عليه[1]. ويقول عنه نفسه: «خصصت في غريزتي منذ حداثتي بفرط الحرص على اقتناء المعارف بحسب السن والحال». ويتعلم لغات مختلفة؛ ففي كتبه عن العقاقير والجواهر يذكر اسم الشيء بالعربية واليونانية والسريانية والفارسية والتركية؛ ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة، فيمدح اللغة العربية بحسن أدائها للمعاني، ويفضلها على الفارسية، وينقد الكتابة العربية، كما ينقدها مفكرو اليوم نقدًا دقيقًا فيقول: «إن كل أمة تستحلي لغتها التي ألفتها واعتادتها، واستعملتها في مآربها... وأنا نفسي قد طبعت على لغة -يريد بها لغته الأصلية الخوارزمية- لو خُلِّد بها علم لاستُغرب استغراب البعير على الميزاب، والزرافة في الأكواب؛ ثم انتقلتُ إلى العربية والفارسية، وأنا في كل واحدة دخيل ولها متكلف، والهجو بالعربية أحب إليَّ من المدح بالفارسية، سيعرف مصداق قولي من تأمَّل كتابَ عِلْم نُقِلَ إلى الفارسية كيف ذهب رونقه، وكسف باله واسودَّ وجهه، وزال الانتفاع به؛ إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية، والأسمار الليلية». ثم ينقد الكتابة العربية فيقول: «وقد حلَّ بأرضنا رومي، فكنت أجيء بالحبوب والبذور والثمار وغيرها، وأسأله عن أسمائها بلغته وأحررها؛ لأنَّ للكتابة العربية آفة عظيمة، وهي تشابُهُ صور الحروف المزدوجة فيها، واضطرارها في التمايز إلى نقط المعجم، وعلامات الإعراب التي إذا تركت استبهم المفهوم منها؛ فإذا انضاف إليها إغفال المعارضة، وإهمال التصحيح بالمقابلة -وذلك بالفعل عامٌّ في قومنا- تساوى وجود الكتاب وعدمه، بل علْمٌ ما فيه وجهله؛ ولولا هذه الآفة لكفى نقل ما في

(١) المصدر نفسه.

كتاب ديسقوريدس المنقولة إلى العربي من الأسامي اليونانية إلا أنَّا لا نثق بها إلخ[1].

لقد اتَّصل البيروني بشمس المعالي قابوس بن وشمكير، وألَّف له «الآثار الباقية»، وهو يبحث في التواريخ التي كانت تستعملها الأمم، والاختلاف في الشهور والسنين، والتقاويم عند الأمم وأسسها، إلى غير ذلك مما يسميه الفرنج الآن علم الكرونولوجيا.

فلما اتصل بمحمود بن سبكتكين فاتح الهند، وقف من الفتوح موقفًا عجيبًا يذكِّرنا بالجمعية العلمية الفرنسية في حملة نابليون على مصر، ولكن البيروني كان جمعية وحده، فعكف على الهند يدرسها من جميع نواحيها: جغرافيتها وعلومها ودينها؛ بل وجواهرها، وألَّف في ذلك الكتب الكثيرة مثل «تاريخ الهند»، و«الجماهر في الجواهر» إلخ، وتعلَّم اللغة السنسكريتية، وأخذ ينقل منها إلى العربية، ومن العربية إليها، فنقل إلى السنسكريتية «نظريات إقليدس»، والمجسطي في الفلك، ونقل إلى العربية من السنسكريتية «باتا نجالي».

وربما كان أعظم كتبه «القانون المسعودي» الذي ألَّفه للسلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين. وهذا الكتاب يبحث في الرياضة والفلك وفلسفة الهند، ولما يُنشر بعد.

وقد عمّر «البيروني» عمرًا طويلًا مباركًا ألَّف فيه كتبًا كثيرة نشرت في رسالة له في أول كتاب «الآثار الباقية» تدل على سعة آفاقه العلمية وعمقه فيها؛ وقد مات بغزنة نحو ٤٤٠هـ عن خمسة وسبعين عامًا.

كما كان من رجال الفلسفة في بلاطه السلطان محمود، ابنُ الخمار، وكان نصرانيًّا؛

---

(١) قطعة نقلها الأستاذ كرنكو عن كتاب «الجماهر في معرفة الجواهر» للبيروني -في مجلة Islamic Culture: ٦/ ٥٣٠.

وقد تقدم طرف من خبزه.

كما كان في بلاط من أدباء الفرس: الفردوسي، والعنصري، والعسجدي، والفرُّخي؛ وقد نظم له الفردوسي قسمًا من الشاهنامة، كما نظم له الآخرون، وموضع ذلك الأدب الفارسي[1].

(١) انظر ذلك في مقدمة الشاهنامة للدكتور/ عبد الوهاب عزام.

الباب الخامس
بلاد المغرب

لما فتح المسلمون بلاد المغرب كلها كانوا يقسّمونها إلى ثلاثة أقسام: مملكة إفريقية، وهي المغرب الأدنى، وقاعدتها القيروان، وسُمي أدنى لأنه أدنى إلى بلاد العرب ومركز الخلافة، والمغرب الأوسط، وقاعدته تلمسان والجزائر، والمغرب الأقصى، وقاعدته فاس في مراكش.

وكان العرب يطلقون على سكان كل هذه البلاد البربر.

وقد افتتحها المسلمون من أوائل عهد الفتح، ولقوا في فتحها عناءً كبيرًا، وبذلوا في ذلك ضحايا كثيرة من سنة ٢٦هـ إلى سنة ٨١هـ.

وكان أهل هذه البلاد لسذاجتهم مرتعًا خصيبًا للدعاة الخارجين على الدولة، ولكل داع بمذهب ديني جديد. قال ياقوت: «البربر أجفى خلق الله، وأكثرهم طيشًا، وأسرعهم إلى الفتنة، وأطوعهم لداعية الضلالة، وأصغاهم لنمق الجهالة، ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قط... وكم من ادَّعى فيهم النبوة فقبلوا، وكم زاعم فيهم أنه المهدي الموعود به فأجابوا دعوته ولمذهبه انحلوا، وكم ادعي فيهم مذهب الخوارج فإلى مذهبه بعد الإسلام انتقلوا». وقامت به دول مختلفة متعاقبة؛ فقد خرج على المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب سنة ١٦٩هـ، ونشر الدعوة به، وأسلم على يده خلق كثير، فبويع له بالخلافة سنة ١٧٢هـ، وأسس دولة تسمت دولة الأدارسة استمرت إلى سنة ٣٧٥هـ فاكتسحتها دولة العبيديين «الدولة الفاطمية».

وقام بنو الأغلب بتونس ودولتهم تنسب إلى إبراهيم بن الأغلب التميمي، حكمت من سنة ١٨٤هـ. وقد عظمت دولتهم وأنشئوا أسطولًا قويًّا في البحر الأبيض فتحوا به صقلية ومالطة وسردينيا، وكان عهدهم عصر سيطرة قوية على البحر، واستمروا في الحكم إلى ٢٩٦هـ حيث استولى عليهم العبيديون أيضًا.

ثم جاءت الدولة الفاطمية، وكان منشؤها بالمغرب، فبسطت سلطانها على جميع بلاد المغرب من حدود مصر إلى المحيط الأطلنطي مضافًا إليها صقلية وسردينيا؛ وقد بدأ ملكهم على يد أبي محمد عبيد الله المهدي سنة ٢٩٦هـ، واستمر الملك في أولاده حتى تولَّى منهم المعز؛ فلما انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، وتتابعت فتوحهم في الشام والحجاز واليمن، وقوي سلطانهم فيها، ضعف سلطانهم في المغرب.

فجاء بنو زِيري الصنهاجيين بتونس والجزائر، وأصلهم من البربر، وكانوا عمالًا للفاطميين، ولما سار المعزُّ إلى مصر استعمل على تونس يوسف بن بُلُكِّين، ثم استفحل أمر يوسف واستقل بمملكته، وأسس دولة نُسبت إليه استمرت من سنة ٣٦١هـ - سنة ٥٤٢هـ، واشتهر من رجالها باديس بن يوسف، وابنه المعز، وهو أول من حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك، وكانوا قبلُ على مذهب أبي حنيفة، ثم ابنه تميم بن المعز الشاعر الكبير، وسيأتي ذلك.

ومن أول الفتح والمسلمون يعملون أقصى ما وفي وسعهم لإدخال البربر في الإسلام، وتفقيههم وتحضيرهم، وتوالى على بلاد المغرب أمراء عظام عملوا في هذه السبيل أعمالًا جليلة، فحسان بن النعمان الغساني عامل عبد الملك بن مروان على إفريقية هو الذي دوَّن الدواوين بها باللغة العربية، وغزا موسى بن نصير المغرب، وكان معه سبعة وعشرون ألفًا من العرب، واثنا عشر ألفًا من البربر، وأمر موسى العرب أن يعلِّموا البربر القرآن والفقه... ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن

عبيد الله بن أبي المهاجر سنة ١٠١هـ أيام عمر بن عبد العزيز[١]... وقد أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين.

وفي أيام هشام بن عبد الملك فرَّ قوم من خوارج العراق إلى المغرب، وبثوا فيه مبادئهم، فسرت دعوتهم في البربر، وأعجبهم من تعاليمهم أن الخليفة ليس يجب أن يكون قرشيًّا، فانتفض البربر على العرب يريدون أن تكون لهم دولة من أنفسهم، وساعد على ذلك ما لقيه البربر أيام ولاية عبد الله بن الحبحاب من الظلم والفساد، وكان خوارج المغرب على مذهب الإباضية والصفرية، وكان لدعوة الخوارج أثر كبير في المغرب في إيجاد عصبية بربرية ضد العصبية العربية، وكثر عدد الخوارج من البربر حتى بلغوا في الثورة أيام عمر بن حفص -عامل الخليفة المنصور- أكثر من أربعين ألفًا من الصفرية، وخمسة وعشرين ألفًا من الإباضية[٢].

وفي أيام هارون الرشيد ولي على المغرب يزيد بن حاتم بن المهلب بن أبي صفرة. قال ابن خلدون: «وفي أيامه انخضدت شوكة البربر، واستكانوا للغلب وطاعوا للدين، فضرب الإسلام بجرانه، وألقت الدولة المضرية على البربر بكلكلها».

وفي عهد العباسيين أخذ أهل المغرب بمذهب أهل العراق «مذهب أبي حنيفة» في الأصول والفروع لأن ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرق، والناس على دين ملوكهم، قال القاضي عياض: «ظهر مذهب أبي حنيفة بإفريقية ظهورًا كبيرًا إلى قرب سنة أربعمائة ثم انقطع منها». وللمعز بن باديس الصنهاجي المتوفى في أواسط المائة الخامسة أثر كبير في ذلك؛ فقد كان هو وأصحابه على مذهب الشيعة أخذًا من أسلافهم الفاطميين أيام استيلائهم على المغرب؛ ثم قطع المعزّ دعوة

(١) تاريخ ابن خلدون.

(٢) انظر «الاستقصاء»: ١/ ٨٥.

الشيعة، ودعا لبني العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك، وكان مذهب مالك معروفًا في هذه البلاد من قبل، ولكن أهله كانوا في محنة حتى نصرهم المعزّ هذا[1].

وانتشر مذهب أهل السنة يزاحم الشيعة والخوارج.

هذه الأحداث العظمى من دخول العدد الكبير من العرب، وفتح البلاد، ونشر الإسلام واللغة العربية فيها، وتثقيف الناس بالدين الإسلامي والأدب العربي، وجعل البلاد جزءًا من المملكة الإسلامية يدخلها التجار من جميع الأجناس، ويتبادلون مع أهلها المعاملات والسلع، واختلاط العرب وغيرهم من المسلمين بأهل البلاد بالتزاوج والتوالد، ووقوعها بين البلاد المتحضرة، وخاصةً بين مصر والأندلس، وكثرة العلاقات والرحلات بين هذه البلاد بعضها وبعض، كل هذا نقل بلاد المغرب من برابرة جفاة -كما يعبِّر ياقوت- إلى أمة لها مدنية ولها حضارة ولها ثقافة، فلا عجب بعدُ إذا رأينا في البلاد حركة عقلية تؤرخ، ويكون لها شأن يذكر.

وقد اشتهرت بلدان في المغرب بتقدمها في الحضارة والعمران والعلم والأدب كالقيروان والمهدية وتاهرت وسجلماسة وفاس.

فأما «القيروان»؛ فقد أسَّسها عُقْبة بن نافع سنة خمسين؛ قال ابن خلدون: «اختطَّ عُقْبة القيروان، وبنى بها المسجد الجامع، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع، وكملت في خمس سنين، وكان يغزو ويبعث السرايا للإغارة والنهب، ودخل أكثر البربر في الإسلام، واتَّسعت خطة المسلمين، ورسخ

(١) انظر الاستقصاء: ١/ ٦١.

الدين». وهي عاصمة إفريقية[١]. وفي القرن الرابع كانت «مصرًا بهيًّا عظيمًا قد جمع أضداد الفواكه، والسهل والجبل -مع علم كثير -لا ترى أرفق من أهلها -ليس بينهم غير حنفي ومالكي مع ألفة عجيبة، لا شغب بينهم ولا عصبية -فهي مفخرة المغرب، ومركز السلطان، وأحد الأركان، أرفق من نيسابور، وأكبر من دمشق، وأجلُّ من أصبهان... جامعها بموضع يسمى السماط الكبير... وهو أكبر من جامع ابن طولون بأعمدة من الرخام، ومفروش بالرخام[٢].

والمهدية؛ وهي مدينة من أعمال تونس اختطَّها المهدي رأس الفاطميين، وبينها وبين القيروان مرحلتان، أسَّسها سنة ٣٠٠هـ، وفرغ منها سنة ٣٠٥هـ، وهي على ساحل البحر الأبيض داخلة فيه كهيئة كف متصلة بزند، وسوَّرها سورًا محكمًا بأبواب من الحديد المصمت، وجلب إليها الماء من قزية على مقربة من المهدية، وجعل لها مرسى يسع ثلاثين مركبًا.

وبنى على المرسى برجين بينهما سلسلة من حديد؛ فإذا أريد إدخال سفينة أرسل الحراس أحد طرفي السلسلة حتى تدخل ثم يمدونها كما كانت، ولما أتم ذلك قال المهدي: «اليوم أمِنت على الفاطميات -يعني بناته- وارتحل إليها وأقام بها، ثم عمَّر فيها الدكاكين، ورتب فيها أرباب المهن، كل طائفة في سوق، فنقلوا إليها أموالهم... ويُنسب إلى المهدية جماعة وافرة من العلماء في كل فن[٣]، وكان من إحدى قرى المهدية هانئ أبو ابن هانئ الأندلسي، وفي المهدية هذه ولد المعز فاتح مصر، ومؤسس القاهرة.

---

(١) إفريقية كان يستعملها العرب فيما يشمل المغرب الأدنى والأوسط، فيشمل طرابلس وتونس والجزائر.

(٢) المقدسي ٢٢٦ وما بعدها.

(٣) انظر معجم ياقوت في مادة المهدية.

وتاهرت؛ بلد كبير من أعمال الجزائر قد أحدقت بها الأنهار، والتفت بها الأشجار، يتنعش فيها الغريب، ويستطيبها اللبيب، رشيق الأسواق، جيد الأهل، قديم الوضع، محكم الرصف، عجيب الوصف[١]... وكانت قديمًا عش الإباضية؛ وقد أخرجت كثيرًا من حفاظ الحديث، وثقات المحدثين[٢].

وسجلماسة قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها، شديدة الحر والبرد جميعًا، صحيحة الهواء، كثيرة التمور والأعناب والفواكه والحبوب، كثيرة الغرباء... وهم أهل سنّة... بها علماء وعقلاء[٣]... ولنسائهم يد صناع في غزل الصوف؛ فهن يعملن منه كل حسن عجيب من الأُزُر تفوق القصب الذي بمصر... وأهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالًا؛ لأنها على طريق من يريد «غابة» التي هي معدن الذهب، ولأهلها جرأة على دخولها[٤].

وفاس بلدان جليلان كبيران، كل واحد منهما محصن، بينهما واد جرار عليه بساتين وأرحية، قد استولى على أحدهما الفاطمي، وعلى الآخر الأموي، وكم ثم من حروب وقتال وغلبة، كثير الخيرات، قليل العلماء، كثير الغوغاء[٥]. وقال أبو عبيد البكري: «مدينة فاس مدينتان: عَدْوة القَرَويين، وعدوة الأندلسيين، وعلى باب دار الرجل، رحاه وبستانه بأنواع الثمر... وهي أكثر بلاد المغرب يهودًا يختلفون منها إلى جميع الآفاق»[٦].

---

(١) المصدر نفسه: ص٢٢٨.

(٢) معجم ياقوت في مادة تاهرت.

(٣) المقدسي: ٢٣١.

(٤) ياقوت في مادة سجلماسة.

(٥) المقدسي: ٢٢٩.

(٦) ياقوت في مادة فاس.

ولما وصف المقدسي إقليم المغرب جملة عند زيارته فيما يهمنا من الناحية العلمية، قال: «إنه إقليم كبير طويل... أهله لا يعرفون مذهب الشافعي إنما هو أبو حنيفة ومالك، وكنت يومًا أذاكر بعضهم في مسألة، فذكرت قول الشافعي فقال: اسكت، من هو الشافعي، إنما كانا بحرين أبو حنيفة لأهل المشرق، ومالك لأهل المغرب أفنتركهما ونشتغل بالساقية؟... وما رأيت فريقين أحسن اتفاقًا وأقل تعصبًا منهم... وسألت بعضهم: كيف وقع مذهب أبي حنيفة إليكم، ولم يكن على سابلتكم؟ قالوا: لما قدم وهب بن وهب من عند مالك، وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز، استنكف أسد بن عبد الله أن يدرُس عليه، لجلالته وكبر نفسه، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلًا؛ فلما طال مقامه عنده قال له: ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمي، وكفيتكم به الرحلة. فصعب ذلك على أسد، ثم سأل: هل يعرف لمالك نظير؟ فدُلَّ على محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فرحل إليه، وأقبل محمد عليه إقبالًا لم يقبله على أحد لما رأى منه من فهم وحرص؛ فلما رأى محمد أنه قد بلغ مراده سيبه إلى المغرب، فلما دخلها اختلف إليه الفتيان ورأوا فروعًا حيَّرتهم، ودقائق عجبتهم، ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب، ففشا مذهب أبي حنيفة بالمغرب... وهناك القسم الثالث المذهب الفاطمي... ولهم تصانيف يدرسونها، ونظرت في كتاب الدعائم، فإذا هم يوافقون المعتزلة في أكثر الأصول، ويقولون بمذهب الإسماعيلية، ولهم فيه سر لا يعلِّمونه لكل أحد إلا من وثقوا به بعد أن يحلفوه ويعاهدوه، وإنما سموا باطنية لأنهم يصرفون ظاهر القرآن إلى بواطن وتفاسير غريبة، ومعان دقيقة، وهذه الأصول مذاهب الإدريسية وغلبتهم بكورة السوس الأقصى[1].

وقد اشتهرت بلاد المغرب بالعناية بالحديث والفقه، وتقصيرها في العلوم

(١) المقدسي: ص٢٣٦ وما بعدها.

النظرية من الفلسفة وفروعها؛ قال المقَّري التلمساني: «وأما ملكة العلوم النظرية فهي قاصرة على البلاد المشرقية، ولا عناية لحذاق القَرَويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط، ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون[1] إلى المشرق، فلقي تلاميذ الفخر بن الخطيب، ولازمهم زمانًا حتى تمكن من ملكة التعليم، وقدم إلى تونس فانتفع به أهلها»[2].

وقد اشتهر من المغرب كثير من الفقهاء وخاصةً في الفقه المالكي من أشهرهم وأولهم أسد بن الفرات، وهو نيسابوري الأصل، قيرواني الدار، أخذ عن مالك موطأه في المدينة، ورحل إلى العراق فأخذ من أبي يوسف ومحمد صاحبي أبي حنيفة، وأخذ عن أبي يوسف الأسئلة التي كان يثيرها الحنفية، ويضعون لها الأحكام على مقتضى مذهبهم، فجرَّدها أسد بن الفرات من أحكامها، وعرضها على ابن القاسم، وتلقى منه أحكامها على مذهب مالك، أو اجتهاد ابن القاسم نفسه، أو اجتهاد أشهب، ودوَّن ذلك كله في الكتاب المشهور المسمَّى «بالمدوَّنة»، فالمسائل المجرَّدة مسائل الحنيفة، والأحكام أحكام مالك وصحبه، وتشتمل على نحو ستة وثلاثين ألف مسألة.

وقد حمل أسد بن الفرات ذلك كله إلى القيروان ونشره بالمغرب، وتولَّى القضاء بها زمنًا، كما تولَّى قيادة الجيش الذي فتح صقلية لبني الأغلب، وقد قتل وهو محاصر لسرقوسة سنة ٢١٣هـ.

ثم سُحْنون؛ وهو عبد السلام بن سعيد، عربي من تنوخ، كان أبوه من العرب الذين نزلوا القيروان، تعلَّم على علماء القيروان، ورحل فأخذ العلم عن ابن القاسم

(١) هو أبو القاسم بن أبي بكر الشهير بابن زيتون، عاش من (٦٦٦هـ - ٧٣٠هـ).
(٢) أزهار الرياض: ٣/ ٢٦.

وأشهب وابن وهب وغيرهم.

وقد أخذ مدونة أسد بن الفرات التي ذكرنا، وأعاد قراءتها علي بن القاسم وصححها عليه، وعاد بها إلى القيروان، فأقبل عليها الناس في المغرب والأندلس وتولى قضاء إفريقية، وجدَّ في نشر مذهب مالك، وتعلم عليه كثيرون حتى عدَّ العلماء الذين تخرَّجوا عليه بنحو سبعمائة.

قال ابن حارث: «قدم سُحنون «إفريقية» بمذهب مالك، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والورع والعفاف والانقباض، فبارك الله فيه للمسلمين، ومالت إليه الوجوه، وأحبته القلوب، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد انمحى ما قبله، فكان أصحابه سُرُج أهل القيروان... ابنه عالمها وأكثرهم تأليفًا، وابن عبدوس فقيهًا، وابن غافق عاقلها، وابن عمر حافظها، وابن جبلة زاهدها، وحمديس أصلبهم في السنَّة وأعداهم للبدعة، وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحها، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث، وأشدهم وقارًا وتصاونًا -كل هذه الصفات مقصورة على وقتهم»[1].

وتوفي سنة ٢٤٠هـ عن ثمانين عامًا، ولما مات رجت القيروان لموته. واشتهر ابنه محمد بن سحنون بالتآليف الكثيرة في الحديث والفقه، ومات سنة ٢٥٦هـ.

ثم أبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن اللبَّاد اشتهر بالحفظ والإتقان وسعة العلم، وسعيه لنشر المذهب المالكي في المغرب، وتكوين علماء حملوا علمه، وأفادوا به الناس. وقد اضطهده الفاطميون أيام سطوتهم لأنه لم يتابعهم في آرائهم، فسجنوه ومات سنة ٣٣٣هـ.

ثم أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الحراوي الفاسي، وهو الذي أدخل فقه مالك

(١) الديباج: ص١٦٢.

في المغرب الأقصى بعد أن كان أهله على مذهب أبي حنيفة، وكان من الحفاظ المعدودين، والفقهاء المشهورين مات بفاس سنة ٣٥٧هـ.

ثم أبو محمد عبد الله بن أبي زيد النفزي القيرواني، إمام المالكية في زمنه، كثير التأليف واسع الفقه حتى سمي «مالك الصغير». رحل إليه العلماء للرواية عنه والتفقه به، له كتاب «الزيادات على المدونة»، وله «مختصر المدونة» توفي سنة ٣٨٦هـ.

وأبو عبد الله بن محمد بن محمود الهَوّاري، قاضي فاس وإمامها، يضرب به المثل في عدله وورعه، له تعليقات على «المدونة» مات سنة ٤٠١هـ... إلخ.

والقابسي علي بن محمد المعروف بابن القابسي، كان واسع الرواية، عالمًا بالحديث ورجاله، فقيهًا مالكيًّا أصوليًّا متكلمًا مؤلفًا مجيدًا، له كتاب «الممهد في الفقه»، و«المنقذ من شُبه التأويل»، وكتاب «المعلمين والمتعلمين»، وكتاب «رتب العلم وأحوال أهله» إلخ. مات بالقيروان سنة ٤٠٣هـ.

واشتهر من فقهاء الحنفية محمد بن عبدون، ولي القيروان بعد سُحنون، فاضطهد المالكية... إلخ.

ولما تغلبت الدولة الفاطمية نشرت فقهها الشيعي ودعوتها الشيعية في المغرب، كما نشرتها بعد في مصر، واضطهدت الفقهاء السنيين؛ وقد عرضوا التشيع على كثيرين منهم فأبو فعذَّبوهم «وقد قتلوا في وقعة أبي يزيد مُخَلَّد بن كيداد خمسة وثمانين من نخبة علماء القيروان»[1].

---

(١) انظر الحجوي في «تاريخ الفقه الإسلامي». ومخلد هذا ثائر بربري هاجم إفريقية سنة ٣٣٣هـ، وأخذها من يد الفاطميين؛ ثم ظفر به المنصور بن القائم العبيدي سنة ٣٣٦هـ.

على الجملة فقد كانت الحركة الدينية الفقهية في المغرب حركة قوية نشيطة، أكثر ما خدمت فقه الإمام مالك.

* * *

والعلم النظري أو الفلسفة -وإن لم ينمُ كثيرًا في بلاد المغرب- لم يخل ممن عكف عليه، فيذكر ابن أبي أُصيبعة أن إسحاق بن عمران، كان بغدادي الأصل، مسلم النحلة، ودخل إفريقية في دولة زيادة الله بن الأغلب، وكان قد استجلبه؛ «وإنما دعاه لحاجته على الطب، والطب كان دائمًا مقرونًا بالفلسفة»، وبه ظهر الطب بالمغرب، وعرفت الفلسفة، وكان طبيبًا حاذقًا متميزًا بتأليف الأدوية، بصيرًا بتفرقة العلل، أشبه الأوائل في علمه، وجودة قريحته، استوطن القيروان حينًا. وقد ألَّف كتبًا كثيرة كلها في الطب. وقد تتلمذ له في القيروان إسحاق بن سليمان الإسرائيلي، وأصله من مصر. ثم سكن القيروان، ولازم إسحاق بن عمران، وكان إسحاق بن سليمان مع فضله في صناعة الطب بصيرًا بالمنطق، متصرفًا في ضروب المعارف، وعمر عمرًا طويلًا إلى أن نيف على مائة سنة، وقد ألَّف في الطب والحكمة والمنطق، وقد خدم الأغالبة والفاطميين ومات نحو سنة ٣٢٠هـ.

وأنجب هؤلاء الوافدون من الأطباء أطباء من أهل البلاد نفسها، مثل أحمد بن إبراهيم، المعروف بابن الجزار من أهل القيروان، وقد اشتهر بالطب وخدمة العامة به. قالوا: وكان عنده نحو خمسة وعشرين قنطارًا من كتب طبية وغيرها، وكان إلى اشتغاله بالطب وتأليفه فيه مؤلفًا في التاريخ، فألَّف في علماء زمانه، وفي أخبار الدولة الفاطمية... إلخ.

* * *

ثم كان حظُّهم من الأدب كبيرًا، وقد مرَّ المغرب بالدور الذي مرَّت به مصر

عند اختلاط العرب بسكان البلاد، من وقوف الشعر إلا القليل الضعيف حتى إذا زالت روعة الفتح وكثر دخول العرب واتصالهم بالبربر، وانتشرت اللغة العربية، ووجد جيل نشأ في المَرْبَى العربي أخذ الشعر يجود، وربما كان خير موطن له دولة الأغالبة، ودولة الفاطميين، ودولة الصنهاجيين «بني زيري». ففي دولة الأغالبة كان كثير من أمرائهم أدباء، فإبراهيم ابن الأغلب نفسه كان شاعرًا ، فمن شعره يفخر بانتصاره:

ما سار عزمي إلى قوم وإن كثروا ... إلا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا

ولا أقول إذا ما الأمر نازلني ... يا ليته كان مصروفًا وقد وقعا

حتى أجلِّيَه قهرًا بمعتزمٍ[1] ... كما يجلِّي الدجى بدرٌ إذا طلعا

قومًا قتلتُ وقومًا قد نفيتهمُ ... ساموا الخلاف بأرض الغرب والبدعا

كلًّا جزيتهمُ صَدْعًا بصدعهمُ ... وكل ذي عمل يجزَى بما صنعا

وكذلك حفيده أبو العباس بن أبي عِقال بن إبراهيم، وهو الذي ولَّى سحنونًا الفقيه قيادة الجيش الذي فتح صقلية، ومن شعره يقول في الفخر أيضًا:

أنا الملك الذي أسمو بنفسي ... فأبلغ بالسمو بها السحابا

* * *

أظل عشريتي بجناح عزي ... وأمنحها الكرامة والثوابا

وأصطنع الرجال وأطبيهم ... وأغفر للمسيء إذا أنابا

* * *

أنا ابن الحرب ربتني وليدًا ... إلى أن صرت ممتلئًا شبابا

---

(١) يريد بالمعتزم الفرس الجامح.

لعمر أبيك ما إن عبت قومي ... وما أخشى بقومي أن أعابا
بنيت لهم مكارم باقيات ... إذا ما صارت الدنيا خرابا

وقد اشتهر من شعراء هذه الدولة بكر بن حماد الزناتي؛ وقد رحل إلى المشرق فدخل البصرة والكوفة وبغداد، ولقي بعض كبار شعرائها كدعبل الخزاعي وأبي تمام، وعاد إلى القيروان، وغلب على شعره الوعظ والزهد كقوله:

قف بالقبور فناد الهامدين بها ... من أعظم بليت فيها وأجساد

* * *

أين البقاء وهذا الموت يطلبنا ... هيهات هيهات يا بكر بن حمّاد
بينما ترى المرء في لهو وفي لعب ... حتى تراه على نعش وأعواد

* * *

فكلّنا واقف منها على سفر ... وكلّنا ظاعن يحدو به الحادي
في كل يوم ترى نعشًا نشيعه ... فرائحٌ فارقَ الأحباب أو غاد[1]

* * *

أما الدولة العبيدية فكان فيها الشعر أرقى وأضخم للأسباب التي ذكرناها عند الكلام في الأدب الفاطمي في مصر، وحسبها أن أنجبت في الشعر ابن هانئ الأندلسي؛ وقد نسب إلى الأندلس لإقامته هناك بعض الوقت وإلا فهو إفريقي من قرية من قرى المهديَّة، وكان في شعره للمعز، كما كان أبو الطيب لسيف الدولة يصف حروبه وأسطوله، ويدون وقائعه، وينشر دعوته، ويمجد خلاله؛ وقد تقدم ذكر طرف عنه، وكان كذلك حوله شعراء ابتلعهم كما ابتلع المتنبي من حوله، فكان في

(١) انظر المنتخب المدرسي من الأدب التونسي للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب.

بلاط المعز بالمهدية من الشعراء أبو الحسن علي بن محمد بن الأيادي التونسي، وقد كان شاعرًا كبيرًا اتصل بالفاطميين أيام القائم والمنصور والمعز. وكذلك علي بن عبد الله التونسي، ومقداد بن الحسن الكتامي، وابن هانئ نفسه يفخر على هؤلاء الشعراء وأمثالهم، ويستصغر منزلتهم منه فيقول:

أرى شعراء الملك تنحت جانبي ... وتنبو عن الليث المخاضُ الأوارك[1]

تخب إلى مَيْدان سَبقي بطاؤُها ... وتلك الظنون الكاذبات الأوافك

رأتني حمامًا فاقشعرت جلودها ... وإني زعيم أن تلين العرائك

تسيء قوافيها وجودك محسن ... وتنشد إزنانًا ومجدك ضاحك[2]

وتُجدَى وأكدي والمناديح جمَّة ... فما لي غني البال وهي الصعالك[3]

أبت لي سبيل القوم في الشعر همة ... طموح ونفس للدنية فارِك[4]

وفي الدولة الصنهاجية كان العمران قد استحكم، والصلة بين المغرب وبين الأندلس ومصر والعالم الإسلامي كله قد تمكنت، والحضارة قد ازدهرت.

قال ابن خلدون: «كان ملكهم أضخم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه»، فرقيت العلوم والفنون، ومنها الأدب.

---

(١) تنحت جانبي: تطعن فيَّ، والمخاض: الحوامل من النوق. والأوارك: التي ترعى الأراك، ورعي الأراك من دلائل الضعف. يقول: إن الشعراء يطعنون فيَّ، وهم أمامي كالنوق الضعيفة أمام الأسد.

(٢) الإزنان: رفع الصوت بالبكاء، وهذا علامة الضعف.

(٣) يقول: يعطون الكثير وأعطي القليل، ومع ذلك أنا غنيّ القلب، وهم صعاليك.

(٤) فارك: كارهة.

ومن أشهر ملوكهم المعز بن باديس قالوا: «إنه اجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب بن عباد» وذكر أكثرهم ابن رشيق في كتابه «أنموذج الزمان في شعراء قيروان».

وكان من الأمراء الصنهاجيين شعراء مجيدون من أشهرهم تميم بن المعز بن باديس -وهو غير تميم بن المعزّ المصري- مَلَكَ إفريقية وما والاها، وكان محبًا للعلماء والشعراء مقربًا لهم، ومن شعره:

إن نظــــرت مقلتـــــي لمقلتهــــا تعـــــي ممـــــا أريـــــد نجـــــواه

كأنهـــــا في الفــــؤاد نــــاظرة تكـــــشف أسراره وفحـــــواه

وكان من شعرائه الحسن بن رشيق وغيره.

وقد نبغ في هذه الدولة كثير من الشعراء والأدباء مثل عبد الكريم النهشلي، وكان شاعرًا أديبًا ناقدًا، عارفًا باللغة خبيرًا بأيام العرب وأشعارها. مات سنة ٤٠٥هـ؛ وقد أكثر ابن رشيق من النقل عنه في العمدة، وذكر أن له كتابًا في الشعر.

ومثل علي بن أبي الرِّجال رئيس ديوان الإنشاء في الدولة الصنهاجية، واشتهر بالكرم وتشجيع الأدب، وهو الذي ربّى المعز بن باديس وحبب إليه الأدب، وهو الذي ألّف له ابن رشيق كتاب «العمدة»، وألّف له ابن شرف «رسائل الانتقاد». مات سنة ٤٢٥هـ.

ومثل أبي عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيرواني كان إمامًا في اللغة، ألّف كتاب «الجامع» في اللغة، وهو يقارب «التهذيب» للأزهري -وهو شيخ ابن رشيق، وهو ينقل في كتابه العمدة أقواله وما جرى له في مجلسه من أدب، وكان يطرح على

تلاميذه عويصات المسائل ويكلِّفهم حلَّها. مات سنة ٤١٢هـ[١].

وأبو عبد الله عبد العزيز بن أبي سهل الخشني الضرير، وهو كذلك من شيوخ ابن رشيق في الأدب. قال عنه: «كان مشهورًا بالنحو واللغة جدًّا، مفتقَرًا إليه فيهما، بصيرًا بغيرهما من العلوم. وكان شاعرًا مطبوعًا سلك طريقة أبي العتاهية في سهولة الطبع ولطف التركيب، ولا غناء لحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه. مات سنة ٤٠٦هـ، وقد زاد على السبعين»[٢].

ومن كبار المؤلفين في الأدب إبراهيم بن علي الحُصْري القيرواني، وهو صاحب كتاب «زهر الآداب» وكتاب «المصون في سر الهوى المكنون»؛ قال فيه ابن رشيق: «كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه، ورؤس عندهم، وشرف لديهم، وسارت تآليفاته، وانثالت عليه الصلات من الجهات وله ديوان شعر[٣]. مات سنة ٤١٣هـ.

وكتابه «زهر الآداب» يدل على ذوق في الأدب رقيق، واطلاع واسع على ما أنتجه الأدباء من الجمل الروائع، والرسائل البليغة.

وله ابن خالة هو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصْري القيرواني، كان عالمًا بالقراءات، وشاعرًا ظريفًا، وهو صاحب القصيدة المشهورة:

يـا ليـل الـصب متـى غـده ... أقيـام الـساعة موعـده

رقـد الـسمّار فأرّقـه ... أسـف للبـين يـردده

---

(١) ترجم له ياقوت وابن خلكان.

(٢) انظر ابن رشيق للميمني.

(٣) ابن خلكان.

وقد حازت شهرة كبيرة، وعارضها كثير من الشعراء في مختلف الأمصار إلى عصرنا هذا.

وظهرت في المغرب حركة جيدة في النقد الأدبي، وردت أول الأمر نتفًا في كتب الأدب عندهم كقول عبد الكريم النهشلي: «قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت ما لا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وجد الاعتدال وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيرًا في غيره، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم... إلخ».

ومثل قول إبراهيم الحصري: «الشعر مطبوع ومصنوع، فالمطبوع الجيد الطبع مقبول في السمع، قريب المثال، بعيد المنال، أنيق الديباجة، رقيق الزجاجة... يطرد ما البديع على جنباته، ويجول رونق الحسن في صفحاته... وحمل الصانع شعره على الإكراه في التعمل بتنقيح المباني دون إصلاح المعاني، يعفي آثار الصنعة، ويطفي أنوار الصبغة، ويخرجه إلى فساد التعسف، وقبح التكلف... وأحسن ما أجري إليه، وأعول عليه هو التوسط بين الحالين، والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة».

ثم ارتقى هذا حتى صار موضوعًا قائمًا بنفسه، وتوجت هذه الحركة بكتاب «العمدة» لابن رشيق، و«أعلام الكلام» لابن شرف[1]، وهما من خير الكتب في النقد الأدبي.

---

(١) نشر الأستاذ عبد العزيز الميمني كتاب «التتف من شعر ابن رشيق وابن شرف»، كما وضع رسالة قيمة في ابن رشيق وابن شرف، فانظرهما.

وقد نقل ابن رشيق في كتابه «العمدة» فن النقد من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين -كما فعل صاحب الموازنة والوساطة- إلى نقد للشعر عامة؛ وقد قال فيه ابن خلدون: «وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقَّها، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله».

وبعد العمدة ألَّف ابن رشيق كتابه «قراضة الذهب» وأكثر ما يتعرَّض فيه للسرقات الشعرية، ومتى تجوز، ومتى لا تجوز، وأين تحسن وأين لا تحسن[1]، كما وضع ابن شرف كتابه «أعلام الكلام»، وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحرير، تعرَّض بطلها لمشهوري الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه في قول قصير، ويبين مزاياه وعيوبه في إيجاز[2].

وقد كان كلاهما من القيروان، وكانا من ندماء المعز بن باديس وشعرائه وجلسائه؛ ولما أغار الهلالية القادمين من مصر على القيروان فرَّا وقالا القصائد في رثاء القيروان. وذهب ابن رشيق إلى صقلية حيث مات بها سنة ٤٥٣هـ، وذهب ابن شرف على الأندلس ومات بها سنة ٤٦٠هـ.

وقد كانا صديقين ثم دبَّت بينهما الخصومة فتساجلا في الأدب كتلك المساجلة التي كانت بين الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني.

وعجيب أمر المسلمين في هذه العصور، فما استقرَّ فرارهم في المغرب حتى أنشئوا أسطولًا قويًّا في البحر الأبيض فتحوا به صقلية وسائر الجزائر حولها، وكان فتح صقلية على يد الأغالبة؛ وقد كان بها ثلاثمائة ونيف وعشرون قلعة، ولكنها لم

(١) وقد طبع في مصر.
(٢) طبع كذلك في مصر.

تثبت أمام قوة المسلمين.

قال ابن خلدون: «كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا... ثم قال: وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على بحر الروم «البحر الأبيض» من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَلٌ بأساطيلهم بشيء من جوانبه، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم؛ فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل: ميورقة ومنورقة وسردانية وصقلية ومالطة وأقريطش وقبرص... والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من لجّة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها... وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة لا يعدونها -وأساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد بفريسته».

ولما فتحو صقلية فبسرعان ما نشروا دينهم وعلمهم ولغتهم؛ بل إن قائد الجيش في الفتح كان هو أسد بن الفرات العالم المالكي المشهور ومعه جماعة من وجوه أهل العلم في تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل، وما زال يفتح في قلاعها حتى أصيب بجروح بالغة مات متأثرًا بها، فأتم خلفاؤه الفتح. ثم «صار أكثر أهلها مسلمين، وبنوا بها الجوامع والمساجد»[1]، وانتشر بها العلم، وأصبحنا نسمع عن كثير من العلماء ينسبون إليها؛ فيقولون: فلان الصقلي، يرحل إليها علماء المسلمون يعلمون الدين واللغة، والأدباء يشعرون، والخليعون يقولون في الخمر ورهبان الأديار

(١) معجم ياقوت في صقلية.

وبناتها. فنجد المقريزي -مثلًا- يقول: محمد بن الحسن بن علي الكرْكنتي الفقيه المالكي تفقه بصقلية وإفريقية؛ وقدم الإسكندرية -وكركنت مدينة بصقلية.

والعماد الأصفهاني يعقد بابًا طويلًا في القسم الثاني من الجزء الحادي عشر في ذكر محاسن فضلاء جزيرة صقلية، ويروي فيه شعرًا صقليًّا بعضه على أوزان جديدة، كقول أبي الحسن بن أبي البِشْر في راقصة:

وغــــــــزالٍ مــــــــشنَّفِ قــــد رثــى لي بعــد بُعْــدي

لَّمـــــا رأى مـــــا لقيـــــت

مثــــــل روض مفــــــوَّفِ لا أبـــالي وهـــو عنـــدي

في حبِّـــــه إذا ضـــــنيت

وجهــــه البــــدر طالعًــــا تــــاه لمــــا حــــاز ودي

فــــإنني قــــد ســــقيت

....إلخ.

ولا ننسى القائد الكبير جوهر الصقلي فاتح مصر، وباني الأزهر، ومدوخ المغرب كله لمولاه المعزّ، وهو غلام رومي الأصل من مواليد صقلية، صار مولى للمنصور ثم للمعز، وكان من أكفأ القواد الذين عرفهم التاريخ. بل نجد من النحاة محمد بن خراسان الصقلي، كان مولى لبني الأغلب، ورحل إلى مصر، وتعلَّم النحو على أبي جعفر النحاس، وروى عنه مصنفاته، وعاد إلى صقلية يدرس النحو، ومات بها سنة ٣٨٦هـ عن ست وسبعين سنة[1].

ومحمد بن علي بن الحسن بن عبد البر الصقلي التميمي اللغوي، ولد بصقلية، ورحل عنها في طلب العلم ثم عاد إليها، وكان موجودًا سنة ٤٥٠هـ، وهو أستاذ ابن القطاع الصقلي.

وفي العصر المتأخر عن عصرنا هذا أخرجت صقلية ابن حمديس الصقلي الشاعر المشهور، والإمام المازري المحدِّث الكبير صاحب كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم»، وهو منسوب إلى مازَر Mazzard بلدة بصقلية، والإدريسي الجغرافي الشهير، وابن ظفر الأديب مؤلِّف كتاب «سلوان المطاع»، وابن القطاع أحد أئمة الأدب واللغة والنحو والعروض، ومؤلف «الدرة الخطيرة»، و«المختار من شعراء الجزيرة» إلخ.

(١) انظر بغية الوعاة للسيوطي.

الباب السادس
جزيرة العرب

أسلفنا في «فجر الإسلام» ما كان في الحجاز من علم وفن وأسباب ذلك.

والحجاز قطر قلَّما يعتمد على نفسه في العيش لقلة زرعه ونتاجه. فلما كان موطنَ الخلافة أيام الخلفاء الراشدين كانت تأتيه الأرزاق من البلاد المفتوحة كمصر والعراق، ولما انتقلت الخلافة إلى دمشق في العهد الأموي ظلت الخيرات تنهال على الحجاز لكثرة الفتوح وكثرة الغنائم، وكانت عصبية الأمويين عصبية عربية تقر بالسيادة للعرب، فكانت ترعى جزيرة العرب وسكانها، وكان الفاتحون من العرب، وكثير من غنائمهم يتسرَّب إلى بلادهم، ولهم ديوان تقيد فيه أسماؤهم وعطاياهم. لذلك سعدت الجزيرة وأنتجت علمًا وفنًّا.

فلما جاءت الدولة العباسية تغير الوضع فأصبح زمام الأمور أكثره في يد الفرس، والعمال أكثرهم من الفرس.

وزاد الأمر سوءًا في الحجاز خروج العلويين به والتفاف الناس حولهم، وإرسال الخلفاء العباسيين من ينكل بهم؛ ففي عهد المنصور خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومعه أشراف بني هاشم وأعيان «المدينة» فعَزَل عاملها من قبل المنصور، وولى عليها عاملًا من قبله، فبعث إليه المنصور جيشًا كبيرًا كبيرًا قاتله وقتله، وقتل كثيرًا ممن معه.

وفي أيام الهادي خرج الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب واجتمع حوله آل أبي طالب وكثير غيرهم، وأرسل الهادي جيشًا فكانت وقعة «وجّ»

بين مكة والمدينة، ثم قُتل الحسين وكثير ممن معه.

وهكذا تتابعت حوادث خروج العلويين، وثورات الحجاز، وفي كل مرة ينكل العباسيون بهم وتزيد كراهيتهم وقبض يدهم عنهم.

فأخذت جزيرة العرب يقل شأنها شيئًا فشيئًا بغلبة العنصر الفارسي، وإبعاد العنصر العربي وقلة المدد الذي يرسل إلى الجزيرة.

ولما جاء المعتصم وتغلَّب العنصر التركي كان الأمر أسوأ، فقد كتب إلى عماله في الأطراف بإسقاط من في دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم، ففعلوا وانحط شأن العرب من ذلك الحين.

واستمر هذا العبث بالجزيرة، ففي خلافة المستعين أحمد بن المعتصم تغلَّب إسماعيل بن يوسف من أولاد علي بن أبي طالب على مكة، فهرب عاملها من قبل الخليفة، وقتل إسماعيل هذا الجند وجماعة من أهل مكة ونهب منزل العامل، ومنازل أصحاب السلطان، وأخذ من الناس نحو مائتي ألف دينار وأخذ كسوة الكعبة وما في الكعبة وخزائنها من الأموال، ونهبت مكة وأُحرق بعضها، ثم خرج منها إلى المدينة فتوارى عنه عاملها ثم رجع إلى مكة فحصرها حتى مات أهلها جوعًا وعطشًا، وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم، ولقي أهل مكة منه كل بلاء. ثم سار إلى جُدَّة فحبس عن الناس الطعام، وأخذ الأموال التي للتجار وأصحاب المراكب، ثم وافى الموقف بعرفة فأفسد فيه كثيرًا، وكان ذلك سنة ٢٥١هـ[1].

وجاء القرامطة فأفسدوا في البلاد، وزحفوا على مكة واستولوا عليها وارتكبوا أشنع الفظائع، ونهبوا الحُجاج ومنعوهم من زيارة البيت الحرام. وفي سنة ٣١٢هـ

(١) خطط المقريزي.

نكَّلوا بالحجاج أعظم تنكيل، ونكبوا العرب أعظم نكبة شهدتها الجزيرة، وكان عدد الذين قتلهم القرامطة في تلك السنة من الحجاج وفي بيت الله وشوارع مكة وضواحيها، ثلاثة آلاف، غير الذين ماتوا جوعًا، ونهبوا من الأموال آلاف الآلاف.

وفي سنة ٣١٤هـ وسنة ٣١٥هـ وسنة ٣١٦هـ لم يحج إلى مكة من العراق أحد للخوف من القرامطة[1]، وكان أبو طاهر القرمطي يقول:

أنا بالله وبالله أنا ... يخلق الخلق وأفنيهم أنا

ونزعوا الحجر الأسود، وبقي في إحدى زوايا «الإحساء» إلى سنة ٣٣٩هـ حيث ردَّه القرامطة بأمر المنصور الفاطمي -والخلافة في بغداد عاجزة عن إخضاعهم.

كل هذه الأحداث وأمثالها أضعفت شأن جزيرة العرب وجعلتها في شبه عزلة وأخَّرتها ماديًّا وعلميًّا، حتى إن المقدسي لما زارها في القرن الرابع وصفها بالفقر وقلة العلم. ووصف مذاهبهم الدينية فقال: «إن مذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء سنَّة، ونواحي صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة «خوارج» غالبة، وهَجَرَ وصعدة شيعة.. وشيعة عمان وصعدة وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة... والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبي حنيفة، والجوامع في أيديهم، وفي نواحي نجد اليمن مذهب سفيان.. والعمل بهجر على مذهب القرامطة، وبعُمان داودية «على مذهب أهل الظاهر» لهم مجالس.

ووصف لغتهم فقال: وأهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية، وأكثر أهل عدن وجدة فرس... وأهل عدن يقولون لرجليه: رجلينه، ويديه يدينه، وقس عليه... وجمع لغات العرب موجودة في بوادي هذه

(١) المنتقى في أخبار أم القرى ص١٩٥.

الجزيرة، إلا أن أصح لغة بها لغة هذيل، ثم النجديين، ثم بقية الحجاز إلا الأحقاف فإن لسانهم وحش»[1].

ومع هذا فقد كان في الحجاز حركة دينية في الفقه والحديث لا بأس بها بفضل تتابع المحدثين الذين كانوا يروون أقوال النبي وأعماله محدثًا عن محدث، وقد كان هذا الإقليم أخصب الأقاليم في هذا الموضوع فظل علمه يتوارث، ثم كانت هذه البلاد المقدسة تأوي إليها أفئدة كثير من العلماء يحصِّلون العلم ويفيدونه ويعتزون بجوار الحرم المكي أو قبر الرسول، ويفضِّلون الإقامة فيهما فيكونون مصدر علم. وقد رأينا في تراجم كثير من المحدثين أن كان في برنامجهم الرحلة إلى الحجاز ورواية الحديث عن ساكنيه، وإطالتهم الإقامة فيه، وكان للإمام مالك وتلاميذه من بعده فضل كبير في الحركة الفقهية.

فكان في مكة أمثال أبي بكر عبد الله بن الزبير الحميدي الأسدي المكي أحد شيوخ البخاري الذين أخذ عنهم في مكة. قال يعقوب بن سفيان فيه: ما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه. مات بمكة سنة ٢١٩هـ وكثر تلاميذه في مكة ممن رووا عنه وأخذوا علمه.

كما نبغ بالمدينة أبو إسحاق إبراهيم بن المنذر بن عبد الله الأسدي، أحد كبار علماء المدينة ومجتهديها، مات سنة ٢٣٦هـ. وتتابع بعده تلاميذه. ويطول بنا القول لو عددنا المحدثين المكيين والمدنيين في ا لقرن الثالث والرابع الهجري فهم كثير، منهم من كان من الحجاز نفسه ومنهم الراحل إليه المتوطن فيه.

ثم انتشر في اليمن فقه الزيدية، وهم أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين

---

(١) أحسن التقاسيم: ٩٤ وما بعدها. والعبارة في بعض المواضع مضطربة.

بن علي بن أبي طالب، ومذهبهم في الأصول قريب من مذهب الاعتزال، فهم يقولون بالعدل والتوحيد كالمعتزلة، وبوجوب الخروج على الظلمَة كالخوارج، ولهم في الفقه اجتهاد يخالفون في بعض الأحكام المذاهب الأربعة، وقد اشتهر منهم أئمة في اليمن، اجتهدوا على أصول مذهبهم كالإمام يحيى بن الحسين الزاهد الرسّي المتوفى سنة ٢٩٨هـ، والإمام الناصر للحق، ألّف كتبًا على مذهب الزيدية والقاسم بن إبراهيم العلوي صاحب صعدة المتوفى سنة ٢٨٠هـ، وأبو الحسن الصليحي ملك اليمن سنة ٤٥٥هـ، وكان فقيهًا زيديًا كبيرًا، وقتل سنة ٤٧٣هـ. وعلى الجملة فهم من قديم كان كثيرًا ما يجمع ملكهم بين تولي أمور الدولة والاجتهاد الديني على المذهب الزيدي.

وقد بقيت الأندلس، وسنفرد لها جزءًا خاصًا بها إن شاء الله.

وقد كان من أهم مظاهر الحركة العلمية التي تدعو إلى الإعجاب في هذا العصر الرحلات، فقد أصبح تقليدًا للعالم أن يرحل ويلاقي العلماء، ويأخذ منهم ويروي عنهم مع عناء الأسفار وفقر العلماء غالبًا.

وقد بلغ الغاية في ذلك المحدثون، فقد كانوا حركة دائمة يرحلون من أقصى الأرض إلى أقصاها لطلب الحديث وجمعه. وما يشتهر عالم في بلدة بالحديث وضبطه وجمعه حتى يرحل إليه العلماء من كل صوب. خذ لذلك -مثلًا- محمد بن إسماعيل البخاري يرحل من بخارى إلى مدن خراسان، إلى الجبال إلى العراق ومدنه كلها، إلى الحجاز إلى الشام إلى مصر، وفي كل مدينة يتحرى حالة علمائها، ويأخذ عمن وثق بهم، وليس البخاري إلا مثلًا واحدًا من أمثلة كثيرة لا تحصى، فقلَّ أن تجد محدِّثًا كبيرًا إلا رحل هذه الرحلات وأمثالها حتى قد يقطع المحدِّث المسافات الواسعة لرواية حديث واحد وضبطه. وتقرأ تراجم العلماء في كتاب كـ«تاريخ بغداد»، فيأخذك

العنجب من نشاط العلماء ورحلاتهم واحتقارهم لمشاقِّ السفر ومتاعب الفقر في سبيل العلم ومعرفتهم كل مصر وكل بلدة ومن فيها من العلماء وما فيها من حديث.

وليس الأمر مقصورًا على المحدِّثين؛ فهكذا كان الشأن في كل علم وكل فن. فأبو جعفر النحاس يذهب من مصر إلى العراق ليأخذ النحو عن أهلها، وابن بابشاذ المصري يذهب على بغداد في تجارة الجواهر، ويأخذ النحو عن رجالها، ومن بالقيروان يذهب إلى المدينة ليأخذ عن تلاميذ مالك وإلى العراق ليأخذ عن تلاميذ محمد بن الحسن، ويسمع الأدباء والشعراء بسيف الدولة فيكون في بلاطه الخوارزمي وأبو علي الفارسي وابن جني الموصلي؛ والمتنبي يومًا بحلب ويومًا بمصر ويومًا بالعراق ويومًا بشيراز؛ وابن بطلان الطبيب البغدادي يناظر ابن رضوان المصري فإذا طالت المناظرة رحل إليه من بغداد إلى مصر.

وإذا فتحت بلدة فسرعان ما يذهب إليها العلماء في الفقه والأدب يعلمون أهلها الدين واللغة والأدب، حتى تصبح بعد قليل مركزًا من مراكز الإنتاج العلمي كالذي رأينا في صقلية، تُفْتح فيرجل إليها العلماء وتدوي فيها حركة العلم، وبعد قليل نراها مركز إنتاج علمي وأدبي عجيب.

والحكومات من جانبها تنشئ الطرق، وتقيم الرباطات والمخافر لحاجتها الشديدة إلى تنظيم البريد، وتسهيل التجارة؛ فكان العلماء في رحلاتهم ينتفعون بهذه المزايا، كما ينتهزون الفرص لخروج القوافل إلى الحج، فينتظمون في سلك الحجاج، ويرحلون إلى البلدان التي يريدونها.

وكانت الرباطات كثيرة في مراحل المسافرين، ويذكر الإصطخري أنه كان في بلاد ما وراء النهر ما يزيد على عشرة آلاف رباط، في كثير منها إذا نزل النازل قدم له

طعامه، وعلف دابته إن احتاج لذلك.

وقد زودت هذه الرباطات بالماء لحاجة المسافر إليه، وعُدَّة إقامة الرباطات وتزويدها من الأعمال الخيرية التي يقف عليها المسلمون بعض أوقافهم.

وفي بعض المراحل تقوم الأديار مقام الرباطات، فينزلها بعض الراحلين، ويجدون فيها راحتهم ومطالبهم، وأكثر ما استغلَّها الأدباء لمرحهم وشغفهم بخمورها المعتقة، وولوعهم بالجمال.

كل هذا جعل المملكة الإسلامية من مشرقها إلى مغربها كأنها وحدة مهما تعدد ملوكها وحكوماتها، فالعالم والأديب والفنان والتاجر لا يعبئون بالحدود التي ترسمها السياسة، ويرون أن اللغة والدين تكسر حواجز السياسة.

وكان لهذا أثره الكبير في العلم والأدب، ومن أوضح هذه الآثار ضعف الشخصية الإقليمية، فليس علم مصر وأدبها متميزًا كثيرًا عن علم العراق وأدبه، ولا عن علم خراسان وما وراء النهر والسند وأدبها، كلها متقاربة لأن رحلة العلماء وشدة الاتصال قرَّبت بين الفروق، وما يُظهر امتياز في ناحية إلا استمدته الناحية الأخرى وحذقته واستغلته، فالفقه المالكي في المدينة، والفقه الحنفي في العراق يؤلف بينهما أمثال محمد بن إدريس الشافعي، وأسد بن الفرات المالكي، والنحو العراقي يحمله إلى مصر وإلى المغرب الراحلون إلى العراق والمتعلمون على أساتذته، والعائدون بعد ذلك منه، والشعراء على أبواب الملوك والأمراء يتنقلون من بلاط إلى بلاط فيوحدون مناهج النَّظْم، والوراقون وتجار الكتب يحملون كتاب «الأغاني» و«رسائل إخوان الصفا» من العراق إلى الأندلس، ومكاتب مصر ومكاتب الأندلس، والقيروان، والمهدية، وفاس، وخراسان، وغزنة تضم في خزائنها أهم ما أنتجه العالم الإسلامي بقطع النظر عن إقليمه.

بل والعلماء أنفسهم نرى شطرًا من عمرهم قضوه في بلد وشطرًا في بلد آخر، شطر في مصر وشطر في الشام، أو شطر في الشام وشطر في العراق، أو شطر في العراق وشطر في فارس، وهكذا حتى ليصعب في كثير من الأحيان عد العالم مصريًا أو شاميًا، وعراقيًا أم فارسيًا.

ومؤلفو التراجم أدركوا هذا المعنى فجمع أكثرهم علماء العالم الإسلامي على اعتبار أنهم نتاج مملكة واحدة كقطر واحد.

نعم توجد شخصية لنتاج كل إقليم كالأدب المصري والشامي والعراقي والفارسي، والطب المصري والشامي والعراقي والفارسي وهكذا؛ ولكنها شخصية غامضة خفية لا ترى إلا بالمنظار الدقيق والبحث الطويل. وأكثر ما يظهر هذا في منبع الظاهرة العلمية والأدبية حين تظهر، فظهورها في إقليم خاضع ولا بد لمؤثرات اجتماعية في هذا الإقليم كظهور المقامات في إقليم فارس والموشحات بالأندلس، والأسلوب المسجوع المحلى بالبديع في الري وما حولها، والرسائل الشاملة لفروع الفلسفة -كرسائل إخوان الصفا- في البصرة؛ كل ذلك له علل اجتماعية وتاريخية وإقليمية مرتبطة بهذه الظواهر ارتباط السبب بالمسبب، ولكن لا تلبث بعد ظهورها أن تقلَّد في سائر الأمصار، ولو لم تكن العلة الأصلية موجودة، وتقوم علة التقليد مقام علة الابتكار، وتختفي الشخصية الأولى وراء المظهر العام للوحدة المشتركة.

وبعد؛ فهذا عرض سريع للحركة العلمية والأدبية، يتلوه إن شاء الله البحث التفصيلي في تاريخ كل علم ومدى تقدمه، ومركز هذا التقدم، وهذا هو موضوع الجزء الثاني من «ظهر الإسلام» أعاننا الله على إتمامه.

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني